المكتبة الجامعية

قراءات متعددة للشخصية

علم نفس الطباع والأنماط
دراسة تطبيقية على شخصيات نجيب محفوظ

تأليف

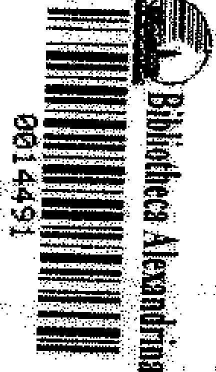
الدكتورة روز ماري شاهين

اختصاصية في العلاج النفسي

قدم له

الدكتور محمد أحمد النابلسي

رئيس مركز الدراسات النفسية



دار ومكتبة الهلال

قراءات متعددة للشخصية

قراءات متعددة للشخصية

علم نفس الطباع والأنماط
دراسة تطبيقية على شخصيات نجيب محفوظ

تأليف

الدكتورة روز ماري شاهين

اختصاصية في العلاج النفسي



قدم له

الدكتور محمد أحمد النابلسي

رئيس مركز الدراسات النفسية

دار ومكتبة الهلال

الطبعة الأولى

١٩٩٥



دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر

بئر العبد ـ شارع مكنزل ـ بناية برج الضاحية ـ ملك دار ومكتبة الهلال

تلفون: ٨٣٦٩٨٨/ ٨٢٠٦٧٧ ـ فاكس: ٦٠٣٢٨٦ (٩٦١١) ـ ص.ب: [illegible] ـ بيروت لبنان

٦٠١٠٢٠/ ٦٠١٠٠٢/ ٨٢٣٤٢٦-٧٠٨ مقسم ٢١٦

تصدير

يسرني أن أقدم للقارىء العربي كتاباً تنتمي مؤلفته إلى مركز الدراسات النفسية والنفسية ـ الجسدية والذي يعرف المتخصصون أنه يشكل تياراً يتميز بخصائص ينفرد بها عن غيره من التيارات والمدارس. فهو لم يأت ببدعة عندما طرح مفهوم الثقافة العلمية على أنها الهادفة لإطلاع المتخصص في أحد الميادين النفسية على آراء ومواقف التخصصات الدقيقة الأخرى. بما في ذلك من توسيع لإطار الرؤية العلمية للموضوع.

إن الفلسفة هي الاختصاص الأساسي للمؤلفة لذا فهي تدرك تماماً سيرورة تطور الفكر الإنساني بتخلّيه التدريجي عن طرح إشكاليات الكون واتجاهه الحثيث نحو الإنسان بوصفه كوناً غامضاً مصغراً. حتى باتت المزاوجة بين الفلسفة وعلم النفس مطروحة كواحدة من جملة شروط ترسيخ المعرفة. بل إن أبحاثاً عديدة تزاوج وبشكل فعلي بين الفيزياء والفلسفة وعلم النفس مبرهنة على بداهة مفادها أن للحقيقة وجوهاً عديدة. فها هو مبدأ الهولوغرام يجمع بين الفيزياء والفلسفة

وها هي أبحاث الطب النفسي العصبي تشير إلى أن الدماغ الإنساني نفسه يعمل وفق مبدأ الهولوغرام (Holograme). من هنا اختارت المؤلفة فرع العلاج النفسي لدراستها عقب الدكتوراه (Post Doctorat) وهي تقدم بهذا الكتاب مجموعة مبادىء لا يؤدي تبسيطها إلى ابتذالها.. فالغاية من هذا العرض هو التدرج من المعلومات المألوفة إلى نتائج الاستقصاء المنهجي الذي يتحرى الوجوه المتعددة للحقيقة الإنسانية. لذلك بدأت المؤلفة بعرض لعلم الطبائع الشعبي مبينة تناقضاته وارتباطه بالأمثال الشعبية التي تنطبق في بعض المقامات وتجانب الحقيقة في مقامات أخرى. هذه التناقضات هي المسؤولة عن التحفظات القائمة في وجه علم الطبائع. حيث لم يشفع له اشتغال العديد من الفلاسفة والعلماء به مما يحول، حتى اليوم، دون الاعتراف به كعلم قائم مستقل. كل هذا دفع المؤلفة إلى طرح هذه المجموعة من المبادىء في محاولة لتحقيق الاستبصار الذي تصيغه المؤلفة على النحو التالي: «علينا ألا ننظر إلى الحقيقة البشرية على أنها ثابتة ومحددة نهائياً. بل علينا أن نفهمها بديناميكيتها وإمكانياتها الكامنة، إمكانيات الحركة والتغيير، حتى يصبح الكامن والممكن مركبات واقع وفعل في النفس وفي الطبع».

إن قراءة الإنسان من خلال مجرد النظر إليه والمراقبة الخارجية له هي قراءة صعبة وفي رأيي إن صعوبتها هي مصدر رفضها. مع ذلك فإننا نتفق على أن نظرة خاطفة تكون كافية لنا كي نتعرف إلى الطفل المنغولي وإلى المصابين بالصفراء

وبعض الأمراض القلبية والغددية والخلقية. . . الخ.

كما أننا نستطيع معرفة العطل الدماغي المسبب للشلل من خلال مراقبتنا لمشية المريض وأيضاً فإننا قادرون على معرفة المهووسين والفصاميين من خلال نظراتهم. عداك عما يمكن لتعابير الوجه وإيماءاته أن تعبر عن الحالة النفسية ـ الداخلية للشخص. ثم نسأل ألا يستند الفحص النفسي إلى هذه المعلومات وغيرها الكثيرة. إن هذا ما يجعل الفحص النفسي فناً قبل أن يكون علماً. إنها النقاط التي لا يمكن شرحها والتي يحتاج الشخص إلى الموهبة لاكتشافها على طريقته الخاصة.

إن الدكتورة شاهيَن تلقي في هذا الكتاب أضواء شاملة على وجوه عديدة للحقيقة الإنسانية. فهي تبدأ بعلم الطبائع الشعبي ومنه إلى الرواد الأوائل لعلم الطبائع لتنتقل بعدها إلى المبادىء التصنيفية ـ الطبائعية لمختلف المدارس والتيارات النفسية الحديثة وخصوصاً تصنيفات فيلهالم رايخ.

ثم تنتهي إلى عرض تصنيفات الطب النفسي لاضطرابات الشخصية لتنهي كتابها بدراسة تطبيقية ـ طبائعية على شخصيات نجيب محفوظ. بهذا تسجل المؤلفة الانتقال من النظريات الطبائعية المعتمدة على الربط بين الجسد الفيزيائي وبين السلوك الشخصي إلى النظريات الظواهرية التي تعتمد على رصد أساليب معايشة الواقع التي تحدد بدورها أساليب التكيف وآلياته. أي أن الكتاب ينقلنا من نظريات علم الطبائع إلى نظريات الطب النفسي وعلم النفس بفلسفاتها المختلفة. حيث

التشخيص يعتمد على بنود من السلوك المرضي بعيداً عن الشكل الخارجي لجسم المريض وعن تشريحته وفيزيولوجيته الأساسية.

هذا الانتقال يبطن نقد المؤلفة لهذه الهوة القائمة والتي تؤدي إلى تغير جذري، في الموقف العلاجي، على صعيد العلاقة مع المريض. بحيث تنعدم المواقف الوسطية فإذا غابت العوارض كان الشخص سوياً وإذا ظهرت كان مريضاً. والواقع أن المواقف الوسطية هذه هي أساس الوقاية النفسية الذي وضعه كرتشمر بترشيحه النمط المتطاول للإصابة بالفصام والنمط المربوع للإصابة باضطرابات المزاج.

لقد أجادت مؤلفة هذا الكتاب عملية الربط بين النظريات المعتمدة على مراقبة قدرات التموقع في الزمان والمكان، وبالتالي التكيف معهما، وبين الملامح المشتركة المتبدية على الشكل الخارجي لكل فئة من فئات الاضطراب النفسي.

طرابلس في ١٢/ ٧/ ١٩٩٤

أ.د. محمد أحمد النابلسي

المقدمة

إن هدف هذه الدراسة هو توضيح تنوّع الطبائع البشرية وتعقدها وديناميتها، انطلاقاً من تحليل وعرض مختلف نظريات تصنيف الطبع والشخصية، التي حاولت إدراك حقيقة النفس البشرية.

ونظراً لوفرة هذه النظريات، فإن دراستنا هذه لا تدعي الإسهاب والإحاطة الشاملة بها بل ستقتصر على أهم هذه النظريات محللة معاييرها وتصنيفاتها. وسنبيّن، انطلاقاً من هذه التصنيفات، كيف تم استنتاج «أنماط» الطبائع الصافية التي تدعي إدراك الحقيقة النفسية البشرية. ولا تهمنا هذه «الأنماط» الصافية إلا في الإطار الذي يسمح لنا بفهم الطبائع والمواقف والتصرفات البشرية نظريّاً. وفي الواقع، فإن الفوارق النظرية بين أنماط الطبائع صلبة جداً، الأمر الذي يحول دون إدراك الحقيقة البشرية بتنوعها وديناميكيتها. وحدها التجربة العيادية تستطيع التقاط التفاصيل والميّزات التي أهملتها النظريات، والتي بحرصها على استنتاج الأنماط الخاصة بها، قد عمدت إلى العموميّات التي تجمد الحقيقة البشرية بحدها بأحد مظاهرها في الواقع. لقد أثبتت التجربة العيادية أن دراسة كل

«حالة» تشكل تجديداً للخبرة التي، باستنادها إلى النظريات العامة وأنماطها، تجد نفسها مضطرة لتأطير مفاهيمها من أجل تطبيقها على الحالة المدروسة.

إن هذا التخصيص بالذات هو الذي سيسمح لهذه التجربة بإدراك دقائق الحقيقة البشرية ومظهرها الديناميكي. ويجب أن ننظر إلى كل حالة على أنها مختلفة عن الحالات الأخرى، وتتمتع بمظهر خاص بها.

ويمكن تطبيق «نمط» الطبع الواحد على آلاف الحالات المختلفة التي لا تجمع بينها سوى الخصائص العامة لهذا «النمط». فالتجربة العيادية هي التي ستستنتج «الفروقات» التي تميز كل حالة عن الأخرى. ومن خلال دراسة هذه الفروقات التي تستنتجها التجربة، تحاول النظريات التعرف على المظاهر المتعددة للحقيقة الإنسانية النفسية. فبفضل التجربة التي تساعد على تنوع علم النفس يستطيع هذا الأخير إدراك موضوعه فيصبح بذلك أكثر عملانية[1]. وهكذا، فإننا لا ندّعي اقتراح خلاصة لنظريات «الشخصية والطبع» المختلفة، بل أردنا الإشارة إلى الخطر الذي يكتنف هذه الخلاصة من جراء التعميمات الجديدة التي تطابقها على تعميمات النظريات المختلفة الموجودة سابقاً.

وانطلاقاً مما سبق، نعتبر أن «علم الطباع» الذي تغنيه

(١) عملاً بمقولة باشلار حول العلوم البحتة التي لم تتمكن من تحديد موضوعها إلا بعد تخليها عن المناهج المعتمدة مبدأ التشابه وتخطيها إلى المناهج المعتمدة على مبدأ الاختلافات. ـ راجع باشلار «الفكر العلمي الحديث».

التجربة العيادية، مدعو لأن يطرح نفسه كعلم «تعددي» وليس «تآلفيّ» أو شاملا. وعندها يصبح بإمكان «علم الطباع» الادعاء بأنه إدراك خصب للحياة النفسية البشرية وغناها وتنوعها.

من الضروري قبل عرض التصميم العام لهذه الدراسة، تعريف مفاهيم الطبع والشخصية وعلاقتها ببعضها. وبما أن هذه المفاهيم تشكل موضوع القسم الثاني من هذه الدراسة، فإننا سنكتفي هنا بإبراز مخططها الأساسي:

في سياق هذه الدراسة، سنعتبر الشخصية «بنية» نواتها الطبع. وتضم هذه البنية عناصر متعددة كاللاوعي، وما قبل الوعي، والوعي، والشخصية الاجتماعية. وتشكل كل هذه العناصر متغيرات تتغير على مدى حياة الفرد الشخصية. أما الطبع، كنواة لهذه البنية، فإنه فطري. وهذه هي المسلّمة الثابتة الأساسية التي تتحدد بأكملها عند ولادة الإنسان، وتتضمن عوامل الطبع الأساسية والمكملة.

وينتج ـ عن المزج بين هذه العوامل ـ الأنماط وسمات الطبائع التي تختلف من شخص إلى آخر. ويشكل الطبع «نظاماً» أما حياة الفرد الشخصية فتشكل «تطورية».

والنظام كطبع ثابت يمكن أن يكون مشتركاً بين عدة أشخاص، في حين أن التطورية ـ حياة الفرد الشخصية ـ فهي الخاصة التي يتمتع بها كل فرد والتي بفضلها تصبح شخصيته متفردة. وبهذا المعنى يقول بيارون[1]:

(١) Pieron. H: La Pyschologie differentielle. Ed. P.U.F.- Paris, 1949.

«... إن شخصيتي هي التي تميزني عن الذين يجمعهم معي طبع واحد...».

تتضمن هذه الدراسة خمسة أقسام:

I ـ تاريخ علم الطبائع.

أ ـ علم الطبائع الشعبي.

ب ـ علم الطبائع العلمي.

II ـ الطبع والشخصية.

أ ـ الشخصية.

ب ـ الشخصية الاجتماعية.

ج ـ الطبع.

د ـ الطبع والحياة الشخصية.

III ـ عوامل الطبع.

أ ـ العوامل الأساسية: الانفعالية والفعالية والترجيع.

ب ـ العوامل التكميلية.

IV ـ الشخصية المرضية.

أ ـ نمطية رايخ REICH.

ب ـ نمطية يونغ JUNG.

ج ـ نمطية زوندي SZONDI.

د ـ نمطية الجيشتالت GESTALT .

هـ ـ أنماط الشخصيّة الطبيعيّة ـ المرضيّة. [سمات الطبع المرضيّة].

V ـ نماذج الطبائع.

دراسة مطبّقة على شخصيات أدب نجيب محفوظ.

الفصل الأول

تاريخ علم الطباع

قبل أن يصبح فرعاً من علم النفس العلمي، كان علم الطباع ـ شأنه شأن علم النفس ـ متأثراً بالفلسفة. «اعرف نفسك بنفسك» هكذا قال سقراط، وضمن هذا الاتجاه انكب أرسطو كأخلاقي على «كيفية وجود» كل شخص. ومن بعده توالت المحاولات لتنظيم الأفكار حول كيفية الوجود وتصنيفها. ولكن هذه التصنيفات المرتبطة دائماً بالمفاهيم الفلسفية بقيت متصلة بالأخلاق بدون أن تنفصل عن الأرث الأفلاطوني الذي يضع فكرة «الخير» فوق فكرة «الحق» في تراتبية الأفكار.

غير أن هيبوقراط، أبا الطب، قام عام ٤٦٠ق.م بمحاولة لتصنيف أمزجة البشر استناداً إلى المقاييس العلمية التي تم استنتاجها من خلال مراقبة السلوك البشري. وفي القرن الأول، قام غاليان بتنظيم أنماط الطبائع التي استنتجها هيبوقراط. وعلى الرغم من أنها أولية فهي ليست بعيدة عن الأنماط التي اقترحها الباحثون الحديثون وخصوصاً كرتشمر وشلدون ايزنيك. فضلاً عن ذلك، لاقت نظريات هيبوقراط رواجاً في العصور الوسطى

وفي عصر النهضة حيث ضخمّتها وبالغت فيها الآراء المسبقة التي أضيفت إليها.

وهكذا، وعلى مر تاريخه كان تطور علم الطبائع العلمي مصحوباً بتطوّر مواز لعلم طبائع شعبي، أقل دقة، ولكنه متأثر بالآراء المسبقة للحقبة التي يمثل.

إن التمييز بين نوعي علم الطبائع، والتفريق بينهما ـ من حيث المناهج والمضمون، وأخيراً من حيث وصف العلاقة بينهما على مر تطورهما التاريخي ـ لهو أمر مثير للاهتمام.

ـ أ ـ علم الطبائع الشعبي:

على الرغم من أن علم الطبائع الشعبي يعتمد في أغلب الأحيان على المعطيات العلمية، إلاّ أنه لم يمتّ للعلم بصلة، سواء في منهجه أو في مضمونه. وكأية معارف غير علمية فإن علم الطبائع الشعبي ينبثق من الاستنتاجات أو الفرضيات العامة، فهو يهدف إلى استنتاج طبائع شاملة لا تُعنى بالتفاصيل التي تُميز الأفراد «ذوي الطبع الواحد».

وفي الواقع فإن «علم الطبائع الشعبي» يهدف إلى تنظيم المواضيع التي يعالجها انطلاقاً من تشابهها، وليس إلى التعرف إليها منفصلة، وانطلاقاً من الفوارق بينها. كما ينبثق هذا العلم عن المماثلة والمقارنة انطلاقاً من مبدأ «المماثلة». لهذا يبقى «علم الطبائع الشعبي» ضمن حدود العموميات، هادفاً إلى صياغة أنماط عالمية. وبسبب هذا الميل إلى التعميم يمتنع

«علم الطبائع الشعبي» عن تحديد مدى تطبيقاته، بل إنه يبقى على مستوى النوعية، مبتعداً بهذا عن العلم الحقيقي الذي يستوعب الموضوع كمًّا بخصبه وتنوعّه.

وإذا كان بإمكان النوعية المكتشفة عند طبع ما أن تُقارن مع نوعية مماثلة مكتشفة عند طبع آخر لاستنتاج التشابه بين هذين الطبعين، فإن دراسة عناصر الطبع من حيث الكمية تبرز ـ على العكس ـ خصوصية هذا الطبع وتميزه بوضوح عن أي طبع آخر.

وفي أغلب الأحيان، يستند علم الطبائع الشعبي في محتواه على «سلطة» لدعم أقواله تكون مبهمة أحياناً، فتظهر على شكل أقاويل كـ «يقال...» مثلاً، لتعبّر عن المعتقدات والذهنية الشعبية بدل أن يكون لها جذور علمية. وبهذا، يصبح محتوى هذه الأقاويل شبيهاً بمحتوى الأمثال الشعبية التي تعبّر عن الذهنية الشعبية وتقاليدها.

إن الاستناد إلى الأمثال يمنح علم الطبائع صفته الشعبية ويفسر لنا سهولة انتشاره في الأوساط غير الأكاديمية، وفي المجالس (الصالونات) حيث يحلو للناس تصنيف المواضيع ونقدها، وإسناد ميزات ومساوىء ربما تكون غير موجودة فيها. وفضلاً عن ذلك، فإن التناقض بين الأمثال المختلفة ينعكس على محتوى علم الطبائع الذي يجعله بدوره متناقضاً. وفي الحقيقة، يستلهم علم الطبائع هذا التناقض من الأمثال الشعبية التي تقول في آن واحد «لا يتغيّر الإنسان بل يبقى هو بذاته» و«كم يتغيّر الإنسان مع العمر!».

كذلك، يميل «علم الطبائع الشعبي» إلى الابتعاد عن هدفه الأساسي، فبدلاً من أن يصف حقيقة ما يشاهد، يصبح «معيارياً» بمطابقته للأخلاق على الحقيقة.

في هذه الحالة لا يصف علم الطبائع الشعبي ما هو «كائن» بل يقول «كيف يجب أن يكون»، وما «يجب أن يكون» فيفقد بذلك موضوعيته بفرض ذاتية الذهنية التي يمثلها، والتي تظهر من خلاله. فيصبح معيارياً وإسقاطيّاً. وبفقدانه للموضوعية يفقد صفته العلمية.

ويبتعد علم الطبائع الشعبي بمنهجه ومحتواه عن العلم، فلا يعود يجد في آخر المطاف سوى ذهنية عصره. فهو يعبّر مباشرة عن «الاعتقاد» الذي ينصهر فيه. فينتصب علم الطبائع الشعبي «عقبة علوميّة»[1] في وجه تطور وتقدم «علم الطبائع العلمي». ولكي يثبت هذا الأخير نفسه، عليه أن يواجه ويحارب باستمرار أحكام علم الطبائع الشعبي المسبقة.

إذ إن العلم، كما يقول غاستون باشلارد (BACHELARD)، يجب أن يتكوّن دائماً ضدّ الاعتقاد[2].

لا يمكن اعتبار علم الطبائع الشعبي، في أي حال من الأحوال، مرحلة تاريخية من مراحل تطوّر علم الطبائع العلمي. وليس هذا الأخير بدوه نتيجة لعلم الطبائع الشعبي أو أنه على تواصل معه.

---

(١) Bachelard. G: La formation de l'esprit scientifique. P.97.

(٢) المرجع السابق ص ١٤.

فعلى مرّ تاريخه، كان «علم الطبائع الشعبي» يتطوّر بموازاة «علم الطبائع العلمي». أما علم الطبائع الشعبي، شأنه شأن الاعتقاد، فمترسخ في الذهنية الشعبية ويميل إلى التناقض في أغلب الأحيان. ولا يمكن للعلم أن يرسي قواعده إلاّ في طرحه جانباً.

وعلى علم الطبائع العلمي أن يتحرر من مناهج ومبادىء علم الطبائع الشعبي، وأن يقف ضدّه وليس معه. ويعني هذا قطع الصلة بمتناقضات الذهنية الشعبية حتى يتسنّى وضع الأسس الموضوعية لعلم الطبائع.

ـ ب ـ علم الطبائع العلمي:

على خلاف علم الطبائع الشعبي الذي ارتكز على مبدأ «الهوية» ومنهج «التماثل»، فإن علم الطبائع العلمي سيرتكز على التنوّع والتباين. ولكي يتسنّى له مواكبة الكائن البشري في خصبه وتعقدّه، عليه أن يتوسع في تعددية علمية، بإطلاق عدة نظريات ترتكز على معايير تعبّر عن المستويات المختلفة لفهم موضوعه:

الإنسان هذا الكائن المعقد والديناميكي في آن واحد.

وهكذا يمكن تقسيم الأنظمة الطبائعية إلى التصنيفات الطبائعية المرتكزة على المعايير الجسدية والنفسية والمرضية والطب ـ نفسية.

I ـ التصنيفات الطبائعية المرتكزة على المعايير الجسدية:

إننا نسعى هنا للتوصل إلى التنظيم النفسي عبر دراسة شكل الإنسان.

أما المنهج الذي تعتمده هذه التصنيفات فينطلق من الخارج إلى الداخل، ومن الظاهر إلى الكامن.

لقد وضع هيبوقراط (Hippocrate) أول تصنيف مرتكز على الشكل والهيئة، وميّز بين أربعة أنماط طبائعية تتشكل تبعاً لغلبة أحد أخلاط الجسم أو عناصره الأربعة على الأخلاط الأخرى (كالدم والصفراء والسوداء[١] والبلغم).

أما الطبائع فهي التالية[٢]:

الدموي: بشرته بيضاء، سحنته ملوّنة وقوامه قصير، يحب الحياة والمجتمع والحركة.

الصفراوي: أسمر البشرة، نظرته حادة، ديناميكي مليء بالحيوية ويملك قدرة كبيرة على العمل.

العصبي: يتميّز بجسم نحيل ورأس كبير، حسّاس وسريع التأثير.

البلغمي (أو اللمفاوي): بدين، مشيته متثاقلة، هادىء لا مبال وبليد.

---

(١) المرة السوداء يفترض وجودها لإكمال نظرية العناصر الأربعة.

(٢) انظر أيضاً: محمد أحمد النابلسي: أصول ومبادىء الفحص النفسي، جروس برس، ١٩٨٩ (ص ٣٦ ـ ٣٧).

كما يميّز في دراسة التصنيفات الطبائعية ـ المرتكزة على المشكل ـ المدرسة الألمانية مع كرتشمر (KRETSCHMER)، والمدرسة الإيطالية مع فيولا (VIOLA)، والمدرسة الفرنسية مع سيغو (SIGAUD).

واستنتج كرتشمر KRETSCHMER[1] العلاقة بين بعض الأمراض العقلية وبعض الأنماط الجسدية. وهذا ما دفعه إلى دراسة مزاج الأشخاص الطبيعيين انطلاقاً من شكلهم، معتبراً أن الشذوذ، في النهاية، ليس سوى مبالغة مرضية في الميول الخفية المشتركة في كل واحد منّا[٢].

ووضع كرتشمر تقنية قياسات دقيقة تأخذ بعين الاعتبار وزن الشخص وقياس خصره ورأسه وغيرها من المتغيرات.

وبتطبيقها على عدد كبير من الأشخاص تمكّن كرتشمر من استنتاج ثلاثة أنماط جدية[٣].

١ ـ النمط الواهن أو الدماغي: جسمه نحيل مليء بالحيوية، رأسه صغير. قفصه الصدري ضيّق وطويل، بطنه منبسط لا وجود للشحم فيه، وجهه مستطيل ذو جبهة عريضة. وقد ربط كرتشمر الجسد الواهن بالمزاج الفصامي[٤].

---

(١) ارنست كرتشمر، طبيب نفسي ألماني تبوأ منصب رئاسة قسم الطب النفسي العصبي في جامعة دوتوبينغان وهو من مؤسسي الجيشتالت.

(٢) خلاصة آراء كرتشمر واردة في كتابه Kärperban and Cheurkter.

(٣) المرجع رقم (٦) (ص ٤٠ ـ ٤١).

(٤) نمط من أنماط اضطراب الشخصية المرشحة.

٢ ـ النمط السمين أو الهضمي: جسمه ممتلىء ودهني، وجهه مدوّر وهو ميّال إلى السُمنة. وقد ربط كرتشمر ذهان الهوس ـ الانهياري بهذا النمط.

٣ ـ النمط الرياضي أو العضلي: يتميّز هذا النمط بعضلات نامية وهيكل عظمي كبير. قفصه الصدري وكذلك منكباه عريضان، وحوضه ضيّق. ووضع كرتشمر ثلاث درجات متتالية لكل نمط من الأمزجة ابتداء من الطبيعي ووصولاً إلى المرض العقلي[١]. كما أوضح فرضيته التي تقول بوجود علاقة بين الإنسان الطبيعي والمريض عقلياً.

ويعتبر فيولا (VIOLA)[٢] أن الجهاز العصبي عند الإنسان ينقسم إلى قسمين[٣]:

الجهاز النباتي والجهاز المركزي ـ الإرادي الذي يوجه الحركات الإرادية. ويتمثل الجهاز النباتي بالجذع والأحشاء التي يحتوي عليها. وتتخذ الحياة النباتية شكلاً أوسع كلما كان الجذع كبيراً. أما الجهاز الثاني فيتألف من العضلات والأعصاب. وكلما كان نمو هذا الجهاز سريعاً، اتخذت العلاقات مع الآخرين شكلاً أوسع.

وعندما يتوازن الجهازان بطريقة متناغمة، تصبح البنية

---

(١) لم يحدد كرتشمر نمطاً طبائعياً مرضياً خاصاً بهذا النمط.

(٢) جيانتو فيولا، مولود عام ١٨١٠ وهو مؤسس المدرسة البنائية الإيطالية.

(٣) انظر ـ أصول ومبادىء الفصح النفسي (مرجع سابق)، ص (٣٩ ـ ٤٠).

البشرية متجانسة تماماً، وهذا ما يطلق عليه فيولا اسم «اللفظ السوي» وهذا النمط نادر جداً بسبب العوامل الوراثية والاجتماعية المختلفة التي تتداخل في تكوينه[1].

وللحكم على بنية شخص ما، فإن فيولا يرتكز على قياسات الأعضاء والجذع، مميزاً بين نمطين متطرفين:

١ ـ المربوع (متضخم الطحال): الذي يتميز بجذع نام جداً بالنسبة إلى الأعضاء الأخرى، مقاوم قوي لا يعرف التعب.

٢ ـ المتطاول: أعضاؤه طويلة بالنسبة إلى جذع قصير نسبياً، يتعب بسرعة وغير صبور.

ولاقت نظرية فيولا البنيوية رواجاً كبيراً عام ١٩٣٠ وعلى أساسها قام بانده (PENDE)[2] بأبحاثه.

ويعود الفضل إلى سيغو (SIGAUD)[3] الذي أثبت غلبة إحدى وظائف الجسم الأساسية. في الواقع، حدد سيغو أربعة أنماط تعتمد على التصنيف الشكلي تبعاً لغلبة أحد الأجهزة العضوية الأساسية في الجسم كالجهاز الهضمي والتنفسي والعصبي الرئيسي. فميّز بين النمط الهضمي والعضلي والتنفسي والدماغي[4].

---

(١) Vendervael, F. Biométrie humaine. Masson. Paris, 1964 (P.121).

(٢) هو طبيب إيطالي أدخل الفص البيولوجي وخصوصاً الغدد الصماء في دراسته للأنماط. فحول هذه الدراسة من ظاهرية إلى بيولوجية.

(٣) طبيب فرنسي (١٨٦٢ ـ ١٩٢١).

(٤) أصول ومبادىء الفحص النفسي ـ مرجع سابق، ص (٣٨ ـ ٣٩).

النمط الهضمي: قفصه الصدري عريض وقصير، منكباه ضيقان ومقوّسان، وذقنه أعرض من أعلى الوجه.

النمط العضلي: جهازه العضلي نام جداً، جذعه ووجهه مستطيلان، جسمه متناسق وفي أكثر الأحيان مُشعر.

النمط التنفسي: يتميز بمنكبين عريضين، وقفص صدري كبير وجذع صغير نسبياً. كما يمكن أن يكون أنفه طويلاً.

النمط الدماغي: جمجمته كبيرة بالنسبة إلى باقي أجزاء الوجه، جذعه دقيق وكذلك أعضاؤه وهيكله العظمي. ويعتقد سيغو أن هذه الأنماط التي ترتكز إلى الشكل، تنتقل بالوراثة بتأثير من المحيط الذي يعيش فيه الإنسان[1]. فقد أكّد أن أغلب البدو مثلاً هم من النمط التنفسي، والمزارعين من النمط العصبي، أما الحضر الميسورون فهم من النمط الهضمي، في حين أن المثقفين، قليلي الحركة، هم من النمط الدماغي.

ومن بين الذين يعتمدون على التصنيف الشكلي نذكر أيضاً كلاً من:

- ماك أوليف (MAC AULIFE) الذي وضع عام ١٩٢٦ نمطية، مميزاً بين النمط السليم والنمط الشاذ.

- ومانوفرييه (MANOUVRIER) الذي وضع عام ١٩٠٢ نمطية مؤلفة من أربعة أنماط:

---

(١) نلاحظ هنا أثر نظرية لامارك حول الانتقال الوراثي وهي موضع انتقاداته حالياً. بهذا الخصوص راجع: Palmade. G: La Caractérologie P.U.F. Paris, 1968, P.24.

الواهن، متراوح النشاط، منخفض النشاط والمفرط في النشاط.

- وتوريس (THOORIS) الذي ميّز عام ١٩٣٧ بين النمط L'arctiligne, Latiligne.

- وكريلوف (KRYLOF) الذي ميّز عام ١٩٣٩ بين النحيف والشحمي.

- وفردون (VERDUN) الذي درس عام ١٩٥٠، خاصة، العلاقة بين حجم الرأس والجسد.

- ودوبلينو (DUBLINEAU) الذي أعدّ عام ١٩٥١ نمطية مؤلفة من أربعة أنماط: الكتفي والمروري والحرقفي والتوافقي.

وكورمان (CORMAN) الذي ميّز عام ١٩٥٠ بين المنبسط والمنقبض.

- ووضع شلدون (SHELDON)[1] عام ١٩٥٠ «علاقات» بين خصائص جسمية معينة وصفات طبيعية معيّنة، انطلاقاً من رواسم فوتوغرافية محدداً بذلك المركّبات الجسمية الثلاث؛ «المربوع» و«العضلي» و«الواهن». كذلك صنّف شلدون الأمزجة فأصبح بإمكان كل إنسان أن يحدد مزاجه من بين المميزات الطبائعية المختلفة. واكتشف ثلاث مركبات مزاجية:

(١) شيلدون - عالم نفس أميركي مولود في العام ١٨٩٩ وكان أستاذ في جامعة شيكاغو (١٩٢٤) وجامعة هارفارد (١٩٣٨).

الحشوي والجسمي والمحني وعندها بحث عن العلاقة التي يمكن أن تنشأ بين المركّبات الجسمية والمركّبات المزاجية[1].

إن دراسة الطبائع المبنية على الأشكال، استحوذت كذلك على اهتمام العرب الذين وضعوا أسس علم الفَراسة.

إن هذه النظريات التي تعتمد على الشكل[2] محدودة، خاصة عندما يتعلق الأمر بالتعرف على المزاج علمياً. وفي الواقع أن هذه النظريات باعتمادها على المظهر الخارجي، لا تشدد سوى على المحددات الوراثية. ولكن هل يمكننا الادعاء بأن الوراثة هي المحدد الوحيد للطبائع والتصرفات الإنسانية وبأنها كافية لدراسة الطبع والشخصية علمياً؟

من الواضح أنه لا يمكننا الاعتماد في أيامنا هذه على الشكل في دراسة الطبائع، كذلك لا يمكننا حد خصب حياة الإنسان النفسية بالمظاهر الخارجية المحددة عند ولادته، وإلاّ لكان هذا حجزاً للحرية البشرية ولقدرة الإنسان على تخطي المحددات الجسمية الوراثية، أو التعويض عنها.

فكيف يمكننا عندئذ تفسير تنوّع وتعقّد السلوك البشري بالرغم من الصفة التكرارية للوراثية؟ وللتأكيد على شكوكنا بشأن الاكتفاء بالتعرف على الطبع من خلال الشكل، نستشهد بقول شلدون نفسه:

---

(١) على عكس كرتشمر فإن شيلدون لم يقم أبحاثه على مراقبة المرضى العقليين. وهو ينتقد نظرية كرتشمر ويرى أنها لا تغطي سوى ١٠٪ من الحالات.

(٢) انتقاد شيلدون بهذا الخصوص قائم بالنسبة لكافة النظريات الطبائعية المستندة للمظهر الخارجي للجسم حتى المرتكزة منها إلى مبادىء.

«. . . يمكن ألاّ يكون هنالك صلة بين المزاج والشكل، إنما في حال وجدت هذه الصلة، فيجب القيام بدراسة دقيقة ومرتكزة على أسس علمية أو حسابية. . .»[1].

II ـ التصنيفات الطبائعية المرتكزة على المعايير النفسية:

تعود التصنيفات الطبائعية المرتكزة على المعايير النفسية إلى أقدم العصور شأنها شأن الدراسات التي تعتمد على الشكل[2]. وتزخر بالأعمال الأدبية التي تبرز الطبائع في أوصاف مستوحاة من الحقيقة بهذا النوع من علم الطبائع الذي نجده في أعمال شكسبير وبوالو ولافونتين وموليير ومونتينيّ ولابرويار وابن المقفع والجاحظ.

ولقد انتهجت أوصاف الطبائع فيما بعد منهجاً علمياً مع ديسكوري (DESCURET) (١٨٤١) وس. بريز (S.PEREZ) (١٨٩١) وو. سترن (W.STERN) (١٩٠٠) وفورنو. جوردان (JORDAN. FURNEAUX) الذي ميّز عام ١٩١٦ بين النشيط والمفكر والخامل. وفي عام ١٩٠٦ ميّز ب. مالابير (B.MALAPERT) بين النشيط والبليد والمعتدل والخامل. وأخيراً وصف كيرا (QUEYRAT) عام ١٩١١ الأنماط الصافية والمركّبة والمتوازنة.

---

(١) Scheldon. N.H. et Stevens. S. les variétés du temperament. Ed. P.U.F. Paris, 1951.

(٢) مثل آراء هيبوقراط وجالينوس في المجال.

وقد حقق مدرة غرونغ (GRONINGUE) مع هايمن (HEYMANS) وويرسما (WIERSMA) تقدماً مهماً في مجال دراسة الصفات السيكولوجية للطبائع. فقد اعتمدوا على ثلاث خصائص رئيسية: انفعالية وفعّالية وترجيع التصورات. ونتج عن المزيج بين هذه الخصائص ثمانية أنماط طبائعية: الضعيف الشخصية والخامل والدموي والبلغمي والعصبي والعاطفي والغضوب والشغوف.

وفي فرنسا، أعاد لوسين هذه الدراسات وطوّرها عام ١٩٣٠ ووصف العلاقة بين الأنماط التي وضعها هايمانس وويرسما وأنماط هيبوقراط. كذلك أعاد غاستون برجيه (BERGER) بدوره الدراسات التي وضعها لوسين (LE SENNE).

واهتمت نظريات نفسية أخرى، عرضيّاً، بعلم الطبائع. وسنكتفي بذكر نظرية أدلر (ADLER) الذي ميّز عام ١٩٣٣ بين المنفتح والمنغلق اجتماعياً. وهـ. فواسين (H. FOISSIN) أخيراً الذي استخلص في العام ١٩٦٥ النتائج الطبائعية لدراسات روشا (RORSCHACH).

وتشكل الأنتروبولوجية الثقافية أخيراً، تياراً آخر يضيف عناصر مثيرة للاهتمام بالتصنيفات الطبائعية المرتكزة على المعايير النفسية. وتعتبر أبحاث ك. هورني (HORNEY) وسوليفان (SULLIVAN) امتداداً لأعمال كل من مالينوفسكي (MALINOVSKI) وم. ميد (M.MEAD) وروث بنديكت

(RUTH BENEDICT) وم. دوفرين (M.DUFRENNE).

ويؤخذ على التصنيفات الطبائعية المرتكزة على المعايير النفسية إهمالها للناحية العلائقية للأمزجة، وتركيزها على وصف الطبائع، مما يحدّ، على نحو ما، فائدة وأهمية النمط الموصوف. ويُنظر إلى الطبع هنا على أنه مجموعة سمات سلوكية جامدة محددة نهائياً.

كما تتجاهل هذه الدراسات نتائج آليات الدفاع والتكيّف، فتنطبق على شيء جامد دون الأخذ بعين الاعتبار إمكانية الحركة والتغيير بفضل قدراته على الدفاع عن نفسه والتكيّف داخل شبكة علائقية. ولكن هل بإمكاننا حدّ كل الثروة البشرية بهذا المفهوم؟.

III ـ التصنيفات الطبائعية المرتكزة على المعايير المرضية:

إن الأنماط المرضية التي ظهرت بعد الأنماط السابقة تنتمي أحياناً إلى التصنيف الحيوي للأنماط الذي حققته الأنتروبولوجيا الجنائية مع س. لومبروزو (C.LOMBROSO) (١٨٧٥) وب. دي تولـيـو (B.DI TULLIO) ثـم مـع فـيـولا (VIOLA) وبـنـده (PENDE). ونـجـد أيـضـاً هـذا الـنـوع من التصنيفات الطبائعية في تحاليل الأعمال الفنية. وهكذا انكب كل من مورغنتالر (MORGENTHALER) (١٩٢١)، فنشون (VINCHON) (١٩٢٤) وفـولـمـا (VOLMAT) (١٩٥٢) فـي أبحاثهم على إنتاج المرضى النفسيين الفني، كما قام هـ. اي (H.EY) (١٩٤٨) بأبحاث عن أعمال السورياليين محاولاً

إيجاد علاقة بين النبوغ والعصاب. لقد حاول الطب النفسي المعاصر وخاصة مع و. مينكوفسكي (MINKOWSKI)[1] عام ١٩٣٢ وضع علم طبائع مرتبط في الوقت نفسه مع نظريات الطبائع الكلاسيكية والتقدم الذي أحرز في مجال الاضطرابات النفسية.

ولقد سيطرت مدرسة توبنغن (TUBINGEN) على هذا الاتجاه في علم الطبائع مع كرتشمر الذي فرّق مضطرب المزاج الدوري عن منفصم المزاج، ومن ثم عن صاحب السلوك الصرعي. أما نيبل (KNIPPEL) فقد ميّز عام ١٩٢١ بين المُتعب والناعس والانفعالي. ووضع و. بوفن (W.BOWEN) علم طبائع قائما على ثلاثة أنماط: منطوي المزاج ومرتفع المزاج ومتعثّر المزاج.

وفي عام ١٩٣٩ تبيّن سوندي[2] (SZONDI) التداعي العاملي عند اللوطي، والمجرم، والمصروع، والسوداوي، والهيستيري، والتخشبي، والعظامي، والمهووس.

وانكب كل من ل. مرشان (L.MARCHAND)

---

(١) لقد تأثر مينكوفيسكي بكل من بلويلر ويونغ ليضع «التوثب الحيوي» (Elan Vital) كمنطلق قاعدي - علائقي لكل فرد لكن تأثرة بالفلاسفة الوجوديين وبالفيلسوف برجسون خصوصاً كان السبب في تحويره لهذا المفهوم ليكتسي معنى المعايشة أي كيف يعايش الفرد أنماط علاقته بالآخرين فيعدل توثبه الحيوي بحسب هذه المعايشة.

(٢) سنعرض لاحقاً لأنماط سوندي.

وج. اجورياغرّا (AJURIAGUERRA) عام ١٩٤٨ على دراسة المشاكل الطبائعية التي يعاني منها المصروعون. أما ج. دوبلينو (DUBLINEAU) فقد استنتج عام ١٩٤٧ أنماطاً «مقاومة» أو «تكيفية». ووضع ب. أبلي (P.ABELY) عام ١٩٤٩ عدداً معيّناً من الصور الغددية ـ الطبنفسية. وانكب م. فردان (M.VERDUN) عام ١٩٥٠ على دراسة أثر الخلل الوظيفي (العصبي ـ الودّي) على الطبائع. وأخيراً تبيّن ل. ميشو (L.MICHAUX) عام ١٩٦٦ الطبع الانفعالي والمتقلّب والمهووس والمنحصر والعظامي والمصروع والفصامي والمنحرف. وأثبت د. ويدلوشر (WIDLÖCHER) وم. بسكين (BASQUIN) عام ١٩٦٨، أن هذه التصنيفات تخلط أحياناً بين حالة مزاجية عرضية ومرض الطبع المزمن. فضلاً عن ذلك يمكننا أن ننقد بأنفسنا العلاقات التي تقيمها هذه التصنيفات بين أنماط الطبائع والأمراض. وفي الواقع لا ينطبق كل سلوك طبائعي في حال اللامعاوضة على هذا العارض المرضي أو ذاك. كما أن كل بنية مرضية معروفة تترافق دائماً مع إمكانيات طبائعية محدودة. أما مأخذنا على هذه النظريات، فهو أنها لم تأخذ بعين الاعتبار وبشكل كاف عوامل وإمكانيات التعويض والتكيّف الخاصة بالشخص. لقد تغاضت هذه النظريات عن بعض سمات الطبائع متجاهلة تماماً تكاملية شخصية الإنسان. لقد جعلت هذه النظريات من الإنسان كائناً ثابتاً متناسية تماماً عوامل دفاع الإنسان كما حدّت تعقّده بأحد جوانبه.

IV ـ التصنيفات الطبائعية المرتكزة على المعايير الخاصة بالتحليل النفسي:

بدأت هذه التصنيفات الطبائعية بالتطوّر مع فرويد (FREUD) في مقالته «حالة شفاء بالتنويم المغنطيسي» حيث كان الأمر متعلقاً بالطبع الهيستيري. في «الرسائل الثلاث» عام ١٩٠٥ حدد فرويد الأصل الثلاثي للطبع: الاندفاعات الجنسية والتسامي وغيرها من البنى الهادفة إلى ردع الحركات الشاذة التي كان يعرف عنها أنها مهملة.

وفي عام ١٩٢٥ اهتمت دراسة، «عن بعض النتائج السيكولوجية للاختلاف التشريحي بين الجنسين»، بالفروقات الأساسية للعناصر الطبائعية الذكورية والأنثوية على الصعيد الوراثي.

كما قابل فرويد، في كتابه «قلق في الحضارة» عام ١٩٣٠، النموذج الغلمي بالنموذج النرجسي. وفي عام ١٩٣١ قام فرويد في كتابه «الأنماط الشهوانية» بمجاذفة للمرة الأولى والوحيدة، في مقال عن التصنيف الطبائعي. لقد حاول ردم ما سمّي «بالهوة» بين الإنسان الطبيعي والمريض بإقامة علاقات متبادلة بين الطبع والليبيدو، فانطلق من ثلاثة أنماط رئيسية[1]:

ـ **النمط الشهواني**: يكون الليبيدو عنده موجّهاً في قسمه الأكبر نحو الحياة العاطفية مع شعور بالقلق من فقدان الحب وهذا يعني التعلق بالأشياء الخارجية.

---

(١) أصول ومبادىء الفحص النفسي ـ مرجع سابق، ص (٥٣ ـ ٥٤).

ـ **النمط الوسواسي**: يتّصف بسيطرة الأنا العليا والقلق الأخلاقي وهذا يعني التعلق الداخلي بالقواعد التحريمية.

ـ **النمط النرجسي**: لا يعاني هذا النمط من توتر بين الأنا والأنا العليا، ولا تسيطر عليه الرغبات، فهو محافظ على نفسه، مستقل، قابل للتخويف بعض الشيء. إن الأشخاص من هذا النمط يعرضون أنفسهم على الناس وكأنهم «شخصيات» كما يطمحون للعب دور القائد.

وكما في أي منهج طبائعي كلاسيكي لم يكتف فرويد بالأنماط «الصافية» التي وصفها بل وصف أنماطاً «خليطة»:

ـ **النمط الشهواني ـ الموسوس**: يتميّز بحياة غريزية قوية تكبتها الأنا العليا باستمرار.

ـ **النمط الشهواني ـ النرجسي**: تتلاقى عنده العدوانية والفعالية على المستوى نفسه. تحت ضغط النرجسية.

ـ **النمط النرجسي ـ الموسوس**: يتميّز بالقدرة على حماية الأنا من مقتضيات الأنا العليا، كما يعمل على إخضاع الآخرين لآرائه ومعتقداته.

إن فرضيات فرويد هذه تبدو غريبة بالمقارنة مع دراساته على المفاهيم عام ١٩٣١. في الواقع هل بإمكاننا وضع الشهواني والموسوس والنرجسي بسهولة على المستوى نفسه؟ أليست هذه المقارنة غريبة بعض الشيء؟.

بالنسبة للأنماط الخليطة، من المؤسف ألاّ يكون فرويد قد حدد بدقة كيف يتم هذا المزيج نوعياً وكمياً، ولكن من المؤكد أن هذا المزيج ليس تقريباً...

فضلاً عن ذلك، عاد فرويد عام ١٩٣٢ في «المحاضرات الجديدة» إلى الحديث عن أثر العوامل ما قبل الجنسية على تكوين الطبع[١]. فذكّر بالصعوبات التي واجهها عند تعريف الطبع وانتهى بخلاصة مفادها أن «الطبع يجب أن يُسند للأنا».

وقد اهتم أيضاً الذين خلفوا فرويد بدراسة الطبائع[٢]. وهكذا وضع و. رايخ[٣] (W.Reich) عام ١٩٢٧ مبادىء «التحليل الطبائعي»، حيث ميّز بين خمسة أنماط طبائعية: الفصامي والفمي والمريض النفسي والمازوخي والصلب: ومن جهته، عرض ناخت (Nacht) عام ١٩٣٨ وصفه الأول عن الطبع المازوخي. أما دويتش (Deutsch) فقد نشر عام ١٩٥٦ كتابه عن العصاب والأنماط الطبائعية. ولنذكر أخيراً أنّا (Anna) فرويد التي اقترحت عام ١٩٦٥ مقاربة طبائعية تتعلق بالخطوط العريضة لنمو الطفل[٤].

أما يونغ[٥] (Jung) فقد بدأ عام ١٩١٣ بالاهتمام بالنمطية السيكولوجية حيث وجد نمطين أساسيين: المنغلق اجتماعياً والمنفتح اجتماعياً، مبنيين على ثابتتين في الشخصية: الانغلاق والانفتاح. وبعد ذلك عمّق نمطيته بفضل دراسة وظائف النفس

---

(١) هذا بخصوص الطبائع الشرجية.

(٢) لن نذكر هنا سوى بعضها.

(٣) سنعرض لاحقاً لأنماط رايخ الطبائعية.

(٤) Freud. A: Le normal et le pathologique chez l'enfant. Ed. Gallimard, 1965.

(٥) سنعرض لاحقاً للأنماط التي اقترحها يونغ.

الأربع كالفكر والإحساس والشعور والحدس، فاقترح علم طبائع يشتمل على ثمانية أنماط مؤلفة من اجتماع الوظائف النفسية والأنماط ذات المواقف الانغلاقية ـ الانفتاحية.

ولنذكر أيضاً ر. دياتكين (R.Diatkine) وج. فافرو (J.Favreau) اللذين فتحا الطريق أمام التفكير بشأن علم طبائع تحليلي بنشرهما دراسة عن الطبع العصابي عام ١٩٥٦. لقد عرفّا الطبع على أنه مجموعة الأشكال العلائقية للفرد مع محيطه. كما ميّزا بين الطبع وعصاب الطبع. فحسب رأيهما، إن تكوّن الطبع يمر بثلاث مراحل: مرحلة التماهي الأولية، ومرحلة التماهي الثانوية وأخيراً مرحلة ظهور الطبع الذي يؤدي عند نهاية فترة الكمون إلى المراهقة والنّضج.

[وأخيراً نذكر م. هـ. ستاين (M.H.Stein) الذي اعتبر عام ١٩٦٩، أن سمات الطبع هي الدفاع ضد العوارض. وأن العوارض هو مبدأ تنظيم، يهدف للحد من النزاعات بحد أدنى من الطاقة، يُعتبر ضرورياً لإيجاد وسيلة للتكيّف. ولإنهاء هذا العرض السريع والذي لا يمكن بالطبع أن يستوفي الأعمال الرئيسية المتعلقة بالتصنيفات الطبائعية المرتكزة على المعايير التحليلية النفسية، فإننا نذكر نقد ي. غلوفر (E.Glover)[١] الذي يقول فيه:

---

(١) Glover. E: Le Caractère et l'inconscient entre Freud et Jund. Ed. P.U.F. Paris, 1950.

«. . . فيما يتعلق بالتصنيفات التحليلية النفسية، لا بد لنا من ذكر ملاحظتين: الأولى، هي أن ظهور علم «الطبائع التحليلي» قد أحدث في حينه ثورة جذرية في علم النفس العادي. والملاحظة الثانية هي أنه آن الأوان لإعادة النظر فيه جذرياً. وكالكثير من الاكتشافات التحليلية النفسية يتبين فيما بعد أن كل ما يبدو للوهلة الأولى وكأنه سلسلة صيغ لا يمكن تجزئتها، ليس في الحقيقة سوى مقاربات فظة. . .

هذه الملاحظة نفسها تنطبق على «أوالية» المركّبات الشهوانية التي لا تزال ترتكز عليها، حتى الآن، كل التصنيفات التحليلية النفسية.

إن مثل هذه المراجعة تصبح ضرورية حيث يبدو مستحيلاً إثبات أثر الآليات العقلية في بنى «الأنا المحددة. . .».

وهكذا، وفي محاولة لمعرفة موضوعه، تشعّب علم الطبائع العلمي في تعددية مفككة. هذا التفكك ناتج عن تعدد النظريات المرتكزة على مفاهيم مختلفة لا بل متناقضة، والمتوجهة إلى موضوع واحد هو الإنسان.

وإذا ما اعتبرنا أن «الطبع» البشري هو خلاصة مركّبات تنتمي إلى مصادر وراثية ونفسية واعية ولا واعية في آن واحد، وذات نزعات طبيعية أو مرضية، نستنتج أن كلاً من هذه النظريات الطباتعية لا تدرك سوى مظهر واحد من مظاهر هذه المركّبات. فتصبح كل نظرية إذاً ناقصة لإدراك طبع الإنسان بكليته.

ربما يمكننا الادعاء بأننا قد فهمنا الطبائع الإنسانية بتنوعها وتعقدها بعد إقامة حوار بين مختلف النظريات الطبائعية. إلاّ أن هذا الحوار يجب أن يكون صريحاً ومرناً بما فيه الكفاية لفهم الطبائع الحية في ديناميكيتها وشبكتها العلائقية وإمكانياتها على التكيّف. علينا ألاّ ننظر إلى الحقيقة البشرية بعد الآن على أنها ثابتة ومحددة نهائياً. بل علينا فهمها بديناميكيتها وإمكانياتها الكامنة، وإمكانياتها على الحركة والتغيير. وهكذا يصبح الكامن والممكن، مركّبات واقع وفعل النفس والطبع الإنساني.

الفصل الثاني

الطبع والشخصية

أ ـ الشخصية:

تعتبر الشخصية ميزة الإنسان النفسية. وهي في الوقت نفسه مجموعة تصرفاته، وطريقة عيشه وتفكيره ومزاجه. إنها تشكل «كلاً متكاملاً» ولكن عناصر هذا «الكلّ» ليست كلها فطرية وراثية. وتتكّون الشخصية، شيئاً فشيئاً، منذ سنوات الإنسان الأولى، وتُطبع بالأحداث والصدمات والخيبات والنجاحات التي تتعرض لها والتي تغيّر من معالمها تدريجياً.

وقد أتاح مفهوم الشخصية لأعظم علماء النفس، وضع تعريفات عنها وشدد كل واحد منهم على الناحية التي بدت له مهمة في شرحها.

واعتبر كاتل[1] (R.B.Catell) أن الشخصية هي ما يسمح لنا بالتنبؤ بما سيقوم به شخص ما في موقف ما. أما هدف البحث النفسي للشخصية، فهو سنّ قوانين تتعلق بردّات فعل الإنسان في هذه الظروف أو تلك من حياته، وفي علاقاته

---

(١) Catell. R.B.: La Pers o nnalité, P.U.F. Paris.

الاجتماعية. وتشمل هذه القوانين سلوك الإنسان الخارجي والداخلي في آن واحد[١].

واعتبر «البورت»[٢] (G.Allport) أن الشخصية هي ميزة الإنسان ككائن فريد من نوعه، وعرّف الشخصية على أنها التنظيم الديناميكي، في نفس الإنسان، لتلك المنظومات النفسية التي تحدد سلوكه وأفكاره. ولم يُعر البورت (Allport) الكثير من الاهتمام للقوى اللاواعية التي توقف عندها علماء الشخصية. وتشدد نظريته المتعلقة بالشخصية على الحاضر، فهي تتعارض مع الشروحات المرتكزة فقط على تاريخ حياة الإنسان، كتلك التي يقترحها الطب النفسي، أو المرتكزة على دراسة العوامل الوراثية. ويرفض البورت وضع أسباب السلوك في تاريخ الإنسان. ويعتبر أن مشكلة الحاضر اليومي هي أخطر مشكلة بالنسبة للشخصية. ويجدر القول أن البورت تأثر بنظرية الشكل (الجيشتالت).

[ويعتبر علم نفس الشكل[٣] (GESTALT)، أن الظواهر النفسية يجب أن تدرس بمجملها، مما يشكل قيمة خاصة يمكن أن تكون مختلفة عن الأقسام التي تؤلف هذا الكل. وتشير هذه النظرية المطبقة على علم النفس الفردي إلى وجوب اعتبار الشخصية كلاً متكاملاً. وبالتالي فإن لها معنى لا يمكن

---

(١) المرجع السابق.

(٢) عالم نفس أميركي مولود عام ١٨٩٧ وتركزت مجمل أبحاثه حول الشخصية.

(٣) وهي مدرسة ألمانية تأسست في بداية هذا القرن على يد ثلاثة علماء ألمان هم كوهلير وكونكا وفرتشمر. سنتحدث عنها لاحقاً.

حدّه بجملة مكوّناتها: كسمات الطبع والاستعدادات الوراثية والتاريخ الشخصي وتأثير المحيط...

كما اعتبر فرويد[١] أن الشخصية هي تكامل الهو والأنا والأنا العليا، وأن كل دراسة عن الشخصية، حسب رأيه، هي بالضرورة تحليلية وعليها أن تفتش في تاريخ الليبيدو عن الأسباب التي تدفع الإنسان إلى التصرف على هذا النحو أو ذاك. أما بالنسبة لأدلر[٢] (Adler) فقد اعتبر أن شخصية الإنسان هي ما يتميّز به من وسائل لحل المشاكل التي تعترضه أو للتوصل إلى الأهداف التي خطّها لنفسه. وتوصل في دراسته عن المزاج العصبي إلى أن شخصية الإنسان العصبي مؤلفة من استعدادين نفسيين مهمّين:

- استحالة تصريف عُقَد شعوره بالنقص.
- عدم التمكن من العيش بطريقة توافقية في المجتمع.

وتكمن مهمة الشخصية في التعويض عن عقد الشعور بالنقص (أو الدونية) والتوصل إلى الأهداف التي حددها الإنسان بفضل جهود الإرادة[٣]. فتصبح الشخصية بذلك «معنى حياة» الإنسان.

---

(١) سبق عرض أنماط فرويد في الفصل السابق.

(٢) هو طبيب ومعالج نفسي مولود في فيينا عام ١٨١٠ وهو اعتمد نظرة علاجية تركز على الشعور بالدونية ومحاولات تعويض هذا الشعور التي يعتبرها ادلر محركاً لسلوك الشخص.

(٣) إن مفهوم الإرادة لدى ادلر مرتبط بمفهوم إرادة القوة الذي طرحه الفيلسوف نيتشيه.

]وعرّف يونغ[1] (Jung) الشخصية على أنها تكامل بين الأنا واللاوعي الجماعي والشخصي والعقد النفسية والطرز الغابرة (Anchetypes).

وأخيراً، يمكننا بواسطة هذه التعريفات التي سبق أن أشرنا إليها، تعريف الشخصية على أنها «كل» أو «بنية» منظمة حيث تندمج العناصر كالطبع ومركباته الثابتة والمتغيّرة، والشخصية الاجتماعية والكفاءات والتاريخ الشخصي. ويجب أن تدرس هذه «البنية» في الظروف التي تتعرض لها وفي علاقاتها وليس بصورة منفردة، لأنها لا يمكن أن تحد بالأقسام التي تتألف منها، وعندما تكون العلاقات مترابطة بين عناصر البنية المختلفة فإن هذا الترابط يُترجم بتوازن الشخصية «وسلامتها».

أما عندما تكون هذه النزاعات متضاربة فإنها تنعكس سلباً على توازن البنية وشبكاتها العلائقية. وعندما يحدث هذا الاختلال تميل الشخصية نحو المرض.

ب ـ الشخصية الاجتماعية:

تشكل الشخصية الاجتماعية، إذا جاز التعبير، الطبقة الخارجية للشخصية. إنها الطبقة التي يغلفّ بها المجتمع الإنسان والقناع أو «البرسونا»[2] الذي يضعه كل إنسان لأداء دور اجتماعي أو مهمة اجتماعية.

---

(١) سنعرض لاحقاً لأنماط يونغ.

(٢) فكرة القناع هذه أدخلها يونغ في تعريفه للبيرسونا (Persona) كعقدة من عقد الشخصية. حيث يعمد الفرد إلى تبني شخصية مصطنعة (غير شخصية =

وتكتسب هذه الميزة التي يطبعها المجتمع في الإنسان أهمية كبيرة. فهي تترجم بعدد معيّن من الأحكام التي يسببها المحيط والتي تصبح متأصلة بالعادة كطريقة التصرف والمشي والنظر والتحدث من جهة الأفكار والمعتقدات والآراء من جهة أخرى. إذاً فهذا القناع يترجم تأثير المجتمع في الإنسان بالسلوك والاعتقادات.

ويتلقى كل إنسان من محيطه العائلي والمدرسي عدداً معيناً من التعاليم والقناعات التي يستبطنها والتي يفكر ويصدر أحكامه انطلاقاً منها. وتشكل هذه التعاليم والقناعات الإطار المرجعي الذي تُردّ إليه الأحداث والأفكار.

ويقابل هذه الآراء والأطر المرجعية أنظمة من ردات الفعل العاطفية أو الكلامية تنطلق مع تلقائية ارتكاسية عندما تتاح لها الفرصة.

تصبح شخصية الإنسان الاجتماعية إذاً وإلى حد ما مجموعة تصرفاته الآلية والمكررة التي تحدث كردة فعل تجاه الحوافز الخارجية. أما الشخصية فتتصل بالعالم الخارجي من خلال الشخصية الاجتماعية وبها تعبّر عن نفسها إزاء هذا العالم. وتكمن شخصية الإنسان الحقيقية تحت قناع الشخصية الاجتماعية. وتحت قناع التصرفات المكررة يكمن الطبع الذي يميّز الأشخاص الذين يتصرفون بالطريقة نفسها.

= الحقيقة) بصورة واعية. فيبدو بشخصية زائفة تقنع شخصيته الحقيقية وتساعده (برأيه) على التكيف مع محيطه. ومصطلح البيرسونا كان يستخدم تقليدياً للإشارة إلى الأقنعة التي يرتديها ممثلو المسرح في العصور القديمة.

هكذا فإن بين الطبع والشخصية لا يوجد ترابط بسيط فحسب بل تفاعل ثابت. إذ غالباً ما يسهّل الطبع عمل بعض التأثيرات الاجتماعية ويضعف بعضها الآخر. ويقوم الطبع باختيار الآراء والمواقف التي وضعها المجتمع والتي استبطنها الإنسان. ويساهم القناع في تطوّر الطبع، إذ يصبح هذا الأخير مشابهاً للقناع أكثر فأكثر في الحدود كالتي يكون فيها القناع مستبطناً وشبيهاً إلى حد ما بالإنسان. ويؤدي هذا التفاعل بين القناع والطبع أحياناً إلى أن يصنع من القناع «طبيعة ثابتة» يصعب التخلص منها. وبدلاً من أن يساعد القناع الإنسان على التكيّف مع موقف ما فإنه يكبّله ويحوّله إلى آلة بطريقة مشوهّة.

ونذكر هنا مثل الانحراف المهني الذي يحدث عندما يلتصق الإنسان بشخصيته الاجتماعية إلى حد يصبح معه غير مبال بكل ما لا يدخل في صلب مهنته. فيلتصق القناع الذي يضعه باستمرار، بوجهه فيكبّله ويعيق تحركاته. ويحدث في حالات أخرى ألا يتوافق القناع مع الوجه فيجرحه. هذا هو مثل الإنسان الذي يمارس مهنة لا تناسب نمط طبعه واستعداداته. فتصبح المهنة عامل إحباط، وبدلاً من أن يلقى الإنسان السعادة في عمله، لا يجد فيه سوى التعب والكدر.

وفي اعتقادنا أن العلاقة المثلى بين المهنة الاجتماعية والطبع هي ارتباط اجتماعي مكيّف، بما فيه الكفاية كي لا تحدث تشوّهات، ومرن حتى يتمكن الإنسان من المحافظة على صفة التنوّع والخصوبة التي يتمتع بها بدون أن يؤذيه القناع.

وتصبح هذه العلاقة المثلى بعبارة أخرى علاقة جدلية بين

الارتباط الاجتماعي والحرية الفردية التي كانت منطلق المذاهب الأخلاقية والسياسية والفلسفية.

أخيراً يجدر القول أنه على كل دراسة نفسية للطبائع أن تأخذ بعين الاعتبار سِمات الشخصية الاجتماعية وأن تدرك كيفية تلاحم هذه التشكلات الاجتماعية مع العناصر الفردية كالطبع ولاستعدادات.

ج ـ الطبع:

عرّف «رينيه لوسين»[١] (René Le Senne) الطبع بأنه «مجموعة الاستعدادات الفطرية التي تؤلف الهيكل النفسي للإنسان». ويتضمن هذا التعريف ثلاثة عناصر:

ـ أ ـ لا يمثل الطبع الشخصية بأكملها فهو ليس سوى محصلة للوراثات التي تقاطعت فيه من أبويه وأجداده القريبين والبعيدين. إن هذه الوراثيات ليست فقط متقاربة بل مؤلفة بطريقة تستتبع ميزة خاصة شبيهة بالميّزات الأخرى ومختلفة عنها في الوقت نفسه. وهكذا فإن الطبع وراثي وفطري وينفي كل ما هو مكتسب.

ـ ب ـ إن الطبع ثابت. فهو الذي يمثل هوية الإنسان البنيوية على مدى حياته. وهو القاع الثابت الذي لا يتغيّر ولا يتطوّر على الرغم من كل التحولات التي تتعرض لها الحياة العقلية. كما يحدد الطبع تطوّر الحياة النفسية لأنه يقع في

---

(١) Le Senne. R: Traité de Caractérologie , P.U.F. Paris, 1949. Page 9.

أساس اختيار تأثيرات المحيط التي يتعرض لها الإنسان.

ـ ج ـ ليس بالطبع سوى هيكل الحياة النفسية، وهو يقع في الحدود بين ما هو عضوي، وما هو نفسي، فيتفرّد الجسم ويكرس خاصيته من خلال الطبع ويتفرد الطبع ويكرس خاصيته من خلال الجهاز العقلي.

وهنا يمكننا القول أن الطبع هو مظهر الإنسان النفسي وهو ما يميّزه جسماً وروحاً. إنه بنية ثابتة تترجم بالسلوك والأمزجة والتصرفات الشخصية.

ومع أن الطبع فطري، إلا أنه يتشكل تدريجياً. وإن جاز التعبير فإنه معالمه تتوضّح وتتأكد على مرّ السنين. وقد حدد علماء النفس بعض المراحل الأساسية لتأكيده، وهي المراحل التي يخضع فيها الطفل للمحيط الذي يعيش فيه. وغالباً ما يصبح الطفل مثلاً مشاغباً ومضطرباً في الثالثة من عمره. أما المرحلة التالية فهي مرحلة التعلم حيث يصبح الطفل أكثر هدوءاً. ويتم إدراك الأنا في السابعة من العمر وترافقه مرحلة يتعارض فيها الطفل مع محيطه العائلي والاجتماعي. ويلي هذه المرحلة مرحلة تكيّف تقطعها أزمة تحرر من القيود في سن المراهقة[١].

وهكذا تتكوّن شخصية الإنسان الراشد بتأكيد الطبع ومعارضته وتكيّفه مع المحيط وظروف الحياة. هذا ويشكّل

---

(١) في ما يتعلق بتشكيل الطبائع فإن النظريات النفسية تختلف بحدة حول هذا =

الطبع العنصر الأساسي للشخصية لا بل نواتها. فكل تطوّر في الشخصية هو نتيجة تفاعل هذه النواة الثابتة مع متغيّرات المحيط. ويؤمن المحيط للشخصية المادة (أفكار جاهزة، تصرّف محدد ومكرر...) ويعطي الطبع لهذه المادة شكلها الذي يعتبر ميزة الإنسان وخاصيته. ويعبّر الإنسان عن هذا الشكل بشخصيته الاجتماعية التي ليست، في آخر المطاف، سوى المظهر الاجتماعي المتكامل أو بالأحرى المظهر الشخصي للطبع الفردي.

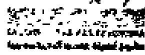
وإذا أردنا تعريف العلاقة بين الطبع والشخصية، يمكننا القول أن الشخصية هي بنية الأنا بأكملها. أما شكل هذه الأنا فهو الطبع كثابتة أساسية.

غير أنه يجدر بنا التفريق بين الطبع، وسمة الطبع.

فالطبع يتألف من ثلاثة عوامل أساسية وثابتة[1]. أما سمات الطبع فهي ردات فعل الطبع تجاه تقلبات المحيط. وإذا كان الطبع بحد ذاته ثابتاً فإن سمات الطبع متغيّرة إلى حد ما. وقابلية التغيير المحدودة هذه تمنح الطبع والشخصية بعض المرونة فتسهّل بذلك عملية التكيّف مع المحيط.

وبسبب قابليتها للتغيّر تضعف سمات الطبع ويحتمل أن تتخذ مظاهر مرضية. ويمكن أن تعاني الشخصية بأسرها من

= الموضوع. إذ يطرح كل منها تصوره الخاص بهذا الموضوع. انظر في هذا الكتاب رأي كل من التحليل النفسي والسلوكية والاشتراطية وغيرها في هذا الموضوع.



(١) الانفعالية الفعالية والترجيع وهي معروضة في الفصل التالي.

هذا المرض فتضعف بنيتها. وهكذا ننتقل من الشخصية الطبيعية إلى الشخصية المرضية.

د ـ الطبع والحياة الشخصية:

تمر الشخصية، كبنية ديناميكية، بتغيّرات على مدى تاريخها، فهي خاضعة للعوامل الخارجية، التي يجب أن تواجهها وتتكيّف معها. ويمكن أن تؤدي هذه التغييرات إلى تغيير سمات الطبع أيضاً بالتشديد عليها وتفعيلها (نقلها من القوة إلى الفعل) وكبتها. ويعطي الطبع شكل هذه التغييرات كما يحدد الفرد بردّات فعله.

ونذكر من بين هذه العوامل التغييرية:

١ ـ أحداث حياة الفرد الشخصية أو تاريخية الفرد: إن الأحداث الصدمية (موت أحد الأعزاء مثلاً) يمكن أن تصدم الإنسان كما يمكن أن تسبب له اضطرابات على مستوى تكيّفه مع الواقع. ويمكن أن تُفعّل هذه الصدمات بعض سمات الطبع أو تزيد من حدة تأثيرها، كالميل إلى الكآبة والتشاؤم عند الطبع «العاطفي مثلاً» حيث يعتبر الإفراط بالانفعالية ثابتة أساسية[١].

٢ ـ عادات الحياة المشتركة: كالحياة الزوجية أو الحياة ضمن فريق عمل، والتي تؤثر في تصرفات الإنسان وانفعالاته وشعوره بالغيرة ورغبته بالمنافسة. ويمكن أن يعيش الإنسان

---

(١) إن الثوابت الأساسية في الطبع العاطفي هي: الانفعالية وعدم الفعالية والثانوية وسنشرحها في الفصل التالي.

تجارب أليمة في حياته المشتركة فتصبح مؤذية إلى حد أنها تؤدي إلى كبت سمة الطبع. ولنذكر مثلاً الطبع العصبي حيث تؤدي الانفعالية والأولية إلى تزعزع المزاج وعدم استقرار، ويظهر هذا التزعزع في كل مرة يواجه الفريق مشكلة في العمل. إن سمة الطبع هذه باتخاذها مظهراً مرضياً، تنتهي بالتأثير في بينة الشخصية بأكملها إلى حد أنها تكبت ملكة التكيّف فلا يعود بإمكان الإنسان التكيّف مع فريق العمل.

٣ ـ التربية العائلية والمدرسية التي تشجع تطور بعض السمات وتكبت البعض الآخر. ثم يأتي دور التربية الذاتية التي تتكّون انطلاقاً من المبادىء التي استبطنها الإنسان أو النماذج التي اختارها بحريّة تقريباً. ويتوضّح استبطان المبادىء هذا عند «الثانوي» الذي يوفّق بين الفكر والحياة أكثر منه عند «الأولّي» المرتبط بالأشياء السطحية.

٤ ـ الدور الاجتماعي: تفرض المهنة الاجتماعية على الإنسان كما رأينا تصرفات ومواقف وآراء تُوافق أو تُعارض الطبع. ويحتّم هذا، وفقاً للظروف، أما تكيّف الإنسان مع الضرورات الاجتماعية وأما مقاومته لها. ويؤدي تكيّف الإنسان مع دوره وقناعه الاجتماعي، عندما يبلغ حده الأقصى، إلى تأطير الشخصية بهذا الدور وإلى منع تحقّق سمات الطبع. أضف إلى ذلك أن مقاومة الضرورات الاجتماعية يمكن أن تجعل من الدور الذي يؤديه الإنسان آداة حصر فيُلقى هذا الدور بعيداً ويصبح الإنسان عندئذ معادياً للمجتمع أي هامشياً وغير متكيّف معه.

وفي ختام هذه الدراسة عن العلاقة بين الطبع والشخصية يمكننا اعتبار الطبع، كشكل، نظاماً، أو نظاماً متزامناً (synchronie) فطرياً وثابتاً، وهذا النظام يشكّل عنصر الشخصية الأساسي.

وتشكل الحياة الشخصية أي تاريخية الشخصية، التي تتغيّر تبعاً لمراحل حياة الإنسان المتعددة، «تطورية» (diachronie) تمنح الطبع خصائصها، فأما أن تتحقق سمات الطبع أو تُكتب.

وأخيراً، سيكون مثيراً للاهتمام طرح الإشكالية النفسية والفلسفية للحرية التي تعتبر ميزة الأنا التي يجب أن تواجه باستمرار نوازع الطبع وضروريات الحياة الاجتماعية في محاولة لتحقيق نفسها.

ونذكر في هذا السياق قول لوسين (Le Senne)[1] «في هذه المنظومة المؤلفة من هذه الحدود الثلاثة (الطبع والشخصية والأنا)، يمكن أن يُشبّه الطبع بآلة كاتبة، أو بيانو. ويمكن أن تُشبّه الشخصية بالرسالة المكتوبة أو اللحن المعزوف اللذين يخرجان من الآلة واللذين يحددهما عمل هذه الآلة. ويمكن أن تُشبّه الأنا عندئذ بالضارب على الآلة الكاتبة أو عازف البيانو. وتكمن أهمية الأنا في استعمال الحرية. ولكن هذه الحرية ليست قادرة على كل شيء، إذ يجهّزها الطبع ويشدّها ويحددها بطريقة وراثية ومستمرة. وتؤدي هذه الحرية إلى شخصية قابلة باستمرار للنمو أو الهبوط».

---

(١) Le Senne: Traité de Caractérologie, P.U.F. Paris, 1949. P.12.

الفصل الثالث

عوامل الطبع

يُحدد الطبع، النواة المحددة لبنية الشخصية، بثلاثة عوامل أساسية تتعلّق بها سمات الشخصية. ويضاف إلى هذه العوامل الأساسية عوامل مكمّلة تحدد أنماط السلوك وردات الفعل المتنوعة عند نمط الطبع نفسه. فهي ثابتة عند الشخص نفسه ومتغيّرة من شخص إلى آخر.

فما هي إذاً عوامل الطبع الأساسية والمكمّلة؟ وإلى أي مدى تحدد هذه العوامل بنية الشخصية وديناميكيتها؟.

أ ـ العوامل الأساسية:

لقد أثبتت دراسات هايمنس (Heymans) وويرسما[١] (Wiersma) تعلّق الطبع بعدد صغير من العوامل. ولقد استنتجا من خلال دراسة ١١٠ أمثال من التاريخ كيف يمكن لاتحاد العوامل الأساسية للطبع كالانفعالية والفعالية والترجيع أن يشرح

---

(١) وهي دراسات ذكرها (Le Senne, R) في كتابه «Traité de Caractérologie» ـ مرجع سابق الذكر.

عدداً كبيراً من الاستعدادات المختلفة. وقد جاءت الأبحاث، التي استندت إلى عدد كبير من الأشخاص[1]، لتبرهن فرضيتهما بالاحصاءات.

I ـ الانفعالية:

الانفعالية هي الاستعداد الطبيعي للشخص، للتأثر بشدة، بأحداث ليست ذات أهمية كبيرة. وهي تختلف عن الانفعال بكونها استعداداً ثابتاً للطبع.

وفي الواقع فإن أي شخص عرضة للانفعال لكن حياة الانفعالي تكون مليئة بالانفعالات العميقة.

وبما أن الانفعالية اختيارية، فإنها تتفاوت من شخص إلى آخر. فيمكن أن يترك حادث ما أثراً كبيراً في شخص ما، في حين لا يبالي آخر بهذا الحادث نفسه. كذلك يمكن أن يتأثر شخص ما بجمال الطبيعة وأن يقف غير مبال تجاه آلام الآخرين في الوقت نفسه. في هذا الصدد يقول لاروشفوكو (La Rochefoucauld) «... ان كل ما يصيبنا من الخير والشر لا يمسّنا بقدر أهميته بل بقدر حساسية كل واحد منّا».

ويمكن أن تكون الانفعالية مصدر أحاسيس إيجابية (جميلة) كالفرح والحماس، كما يمكن أن تكون مصدر

(١) في بحثه حول الوراثة النفسية قام هايمنس، عام ١٩٠٥، بإجراء استخبار على ثلاثة آلاف طبيب في هولندا فتوصل إلى رصف ٢٥٢٣ حالة فردية موزعة على ٤٥١٠ عائلات.

الغضب والخوف والقلب وغيرها من الأحاسيس السلبية (المكّدرة).

وتترجم بردة فعل الجسم بطريقة مباشرة وعنيفة في بعض الأحيان. ويرافق كل انفعال مجموعة من المظاهر الجسدية وأول هذه المظاهر انقباض[١] أو توسع الأوعية[٢] الدموية القريبة من طبقة الجلد مما يحدث شحوباً مفاجئاً، أو على العكس موجات من الشعور بالحرارة واحمرارا مفاجئا. كما تصبح اليدان رطبتين بسبب العرق ويرافق هذا ارتجاف في الجسم بأكمله واضطراب في النظر وتزايد في سرعة النبض. كذلك يتسارع التنفس أو يصبح بطيئاً. كما يعجز الإنسان عن التحكم بردود فعله التي تصبح خارجة عن إرادته: فيبدأ بالبكاء أو يختفي صوته كأنّه تجمّد. ويمكننا الاستشهاد بالاضطراب الذي أحست به فيدرا عند رؤية بيروس لتوضيح مظاهر الانفعال الجسدية:

أراه فتحمّر وجنتاي وأصفّر.
أضطرب، والنفس مني تضيع.
ويزيغ بصري، واعيياً عن الكلام.
هو هنا، أراه، يتدفق دمي نحو قلبي.
وأنسى ما جئت لأقوله له[٣].

---

(١) تضيف فتحة الأوعية الدموية.
(٢) اتساع فتحة الأوعية الدموية.
(٣) Racine. J: Phèdre.

أما من ناحية السلوك، فيمكن أن تكون الانفعالية كابتة كما لاحظنا في المثل السابق، كما يمكنها أن تثير ردات فعل سلوكية سريعة ومحركة تترجم قدرة تأثير الحوادث الخارجية في حساسية الشخص. وتُظهر ردات الفعل المحركة هذه تعويضاً تقوم به الأنا التي تدافع عن نفسها ضد الاضطرابات التي تحدثها الانفعالية. ويرافق النزوية عادة إثارة تجعل الإنسان سريع التأثر فيتدنى مستوى عتبة الانفعالية. وتكفي إثارة بسيطة لأحداث ردة فعل نزوية. ويمكن ترجمة هذه الإثارة على أنها تكيّف الشخص النفسي الذي يبدأ بالتشكيك بردات فعله تجاه انفعاليته المفرطة وردات فعله النزوية التي يتعذر كبحها فيصبح عندئذ قابلاً للإثارة، أي أكثر انفعالية.

وترتكز معظم النظريات، من وجهة النظر الطبية، على الانفعالية وتبدّل المزاج الذي يتأتى عنها. أما أهم هذه النظريات، فهي التي بدأ بها كل من أرنولد Arnold ولندسلي Lindsley عام ١٩٥٠ والتي أكملها ماك لو (Mac Leau)[١] فيما بعد.

ومن خلال دراسة هذه النظرية لآلية التنشيط، نتبيّن الدور المزدوج للاتصال بين تحت المهاد وقشرة الدماغ[٢].

ويؤمن هذا الاتصال إرسال السائل العصبي اللازم

---

(١) كان بارد (Bard) سباقاً إلى تحديد دور ما تحت المهاد (الهيبوتالدموس) في سيرورة عملية الانفعال وكان ذلك في العام ١٩٢٧.

(٢) أصول ومبادىء الفحص النفسي - مرجع سابق الذكر - ص ٧٤.

لمواجهة الإثارة من جهة ومن جهة أخرى يؤمن وصول السائل العصبي من السطح الخارجي إلى قشرة الدماغ المتوسط فيصبح بالإمكان تثبيت ودعم قوة ردة الفعل. وقد توصل ماك لو (Mac Leau) إلى تحديد دائرة الفعل وردة الفعل المغلقة. وتفسر هذه الدائرة العصبية المغلقة: Cortico- Hypothalamique- Perferico- Hypothalamo- Cortical الآلية التي تعتبر أساس تثبيت ودوام الآلام ذات المصدر الانفعالي.

ومن وجهة النظر الطب ـ نفسية يمكن للانفعالية أن تؤثر في مزاج الإنسان، بفقدان التوازن واحداث خلل يتجلى في سلوك الإنسان أو في مزاجه العام. ويمكن تصنيف اضطرابات المزاج إلى[1]:

ـ **المزاج المتطرف الانفعال Hyperthymie**: نجده عند بعض المتخلفين عقلياً وفي حالات الذهان حيث يُظهر المريض نوعاً من الإثارة وفي حالات الشمق (فرح غير مبرر) التي يعيشها مدمنو المخدرات.

ـ **المزاج الفاتر الانفعال Athymie**: يتجلى في فقدان الانفعالية، ولا مبالاة نجدهما عند بعض الأشخاص الذين يعانون من انفصام في الشخصية ويقعون فريسة الهلوسات.

ـ **المزاج المتدني الانفعال Hypothymie**: ويتجلى في انخفاض الانفعالية والحماسة. ويظهر في بعض حالات الانفصام والخبل.

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٨ ـ ٧٩.

ـ **المزاج العسير Dysthymie**: يمكن أن تؤدي الكآبة والألم النفسي إلى حالة من الخوف من الذات (رهاب الأنا) كما هي الحال في عصاب فيرا (Vera) وفي حالات النوراستانيا.

ـ **المزاج النظير الانفعالي Parathymie**: يمثل حالة متقدمة من تطور المزاج العسير. ويتجلى المزاج العسير في الألم النفسي الذي ترافقه حالة من الخوف والعصبية الحادة. وتظهر هذه الحالة في حالات الهذيان وفي نوبات المدمنين المحرومين من تناول المخدرات. ولكن الانفعالية ليست اضطراباً أو انهياراً فحسب بل إنها قد تحدث مصادفة. فهي قبل كل شيء حساسيّة تتجلى في الذكاء. وبهذا المعنى قال برغسون (Bergson): إن الانفعال يدفع الذكاء إلى الأمام ويزيل العقبات ويحيي وينشط. «إن أعظم الأعمال هي نتيجة انفعال فريد من نوعه، نتخيّل للحظة أنه لا يمكن التعبير عنه ولكنه أراد التعبير عنه نفسه».

وهكذا يمكننا القول بأن الانفعالية هي قوة تتجلى على صعيدين:

ـ **على الصعيد الفيزيولوجي**: وإذا جاز لنا التعبير، على الصعيد الحيواني، حيث تظهر على شكل خوف أو اضطراب أو رغبة في التحطيم.

ـ **على الصعيد الإنساني**: وحتى أبعد من ذلك، حيث تظهر الانفعالية على شكل تسام أو إبداع.

وفي الإبداع فقط يتمكن الإنسان من التعبير عن خصب الانفعال اللامتناهي. إن الانفعال مُبدع ولا إبداع بدونه.

II ـ الفعالية:

تتجلى الفعالية في حاجة منتظمة تدفع الإنسان إلى الفعل. ويمكن تعريفها على أنها طاقة مدركة ومنظمة للأنا ومختلفة عن طاقة الغرائز اللاواعية وغير المنظمة. وبهذا تختلف عن الاضطراب البسيط الذي يقود الإنسان إلى أهداف كثيرة بدون الحصول على نتيجة بنّاءة. إن هذا الاضطراب الموجّه بدوافع يجهلها الإنسان نفسه هو تعبير عن الانفعالية أكثر منه عن الفعالية. والإنسان الذي يُدفع للقيام بعمل ما لا يعتبر نشيطاً ـ (فعالاً). وفي الواقع، ما أن يتوقف الانجذاب الخارجي أو الدوافع ويصبح الإنسان مستسلماً لنفسه حتى يصبح فريسة لحالة من التشتت والحيرة يصعب تخطيّها. وما أن تعترضه مشكلة حتى يصبح عاجزاً عن إتمام العمل الذي بدأ به. فيقاوم ـ داخلياً ـ الحركة، ويبذل جهداً كبيراً للشروع في العمل. كذلك إن الشخص غير الفعّال لا يمكنه القيام بعمل يسبب له الضجر أو يكون لا مبالياً تجاهه.

وعلى العكس فإن الفعّال هو الذي يقرر ـ بوعي ـ القيام بعمله. وهو يتميّز عن غير الفعّال، بقدرته على اتخاذ المبادرة للقيام بعمل ما. وتتحقق هذه المبادرة باعداد مشروع العمل. ولا ينظم الفعال عمله انطلاقاً من مبدأ اللذة، وإنما انطلاقاً من مبدأ الواقع، أي مبدأ الأنا الواعية. إذ توجه الأنا طاقة وغرائز

اللاوعي وتسمح لها بأن «تتحقق» مع إرضاء متطلبات الأنا الأعلى في الوقت نفسه. وبهذا المعنى عرّف فرويد عمل الأنا بالآتي:

«يعتبر تصرّف الأنا صحيحاً عندما يتوصل إلى إشباع متطلبات الهو والأنا العليا والواقع، التي يعرف كيف يوفق بين شروطها».

أما غير الفعّال فهو مكبوت بشدة ومقيّد في عمله. على عكس الفعّال الحر من أي كبت فإنه يمكن أن يكبح فعاليته وديناميكيته بالإسراف بالممنوعات.

ويلحق بالأنماط الطبائعية كبت متفاوت. فالنمط المنفتح لا يعاني من الكبت في سلوكه كالنمط المنغلق[1].

كذلك فإن النمط الدماغي المرتبط ـ حسب شلدون ـ Sheldon بجسم ضعيف، سهل الكبت على خلاف النمطين الآخرين: النشيط ـ الحشوي (البدين) والنشيط ـ الجسدي (العضلي).

ويشكل الكبت، في نظرية التحليل النفسي، جزءاً من الشخصية بحيث يسمح للأنا الواعية بإقامة توازن بين الميول الغرائزية التي يحتّمها الهو والأفكار الأخلاقية التي يكتسبها الإنسان من التربية التي يتلقاها.

وعلى الأنا أن تعي الكبت الذي يلحق بها لكي تقرر بعدئذ وبوعي تام، أية رغبات غرائزية يجب السماح بها وأية

---

(١) وذلك وفق أنماط يونغ التي سنشرحها لاحقاً.

رغبات أخرى يجب منعها. وهكذا لا تعود بحاجة إلى كبتها، ولا مرتبطة بها كارتباطها بالرغبات. فتتعزّز حينها قوة الأنا. وتُثبط العقبات عزيمة غر الفعّال بسرعة وتكبح جهوده. كما يحدث أن يختلق هذا الأخير حجة لإيقاف العمل الذي يسبب له الضغط والإرهاق، على عكس الفعّال الذي يجد نفسه مضطراً لمضاعفة جهوده في كل مرة يصادف عقبة ما، إذ تحثه على العمل ويجد فيها سبباً آخر لبلوغ هدفه. ولا يحس الفعّال بالمجهود الذي يبذله في العمل. فهو يعمل بدون جهد. وهو لا يعرف الكلل، أو بالأحرى يتعب قليلاً. ولا يجد الفعّال ضرورة لتقدير الجهد الذي بذله، ففكرة الجهد لا تسبب له القلق كما يحدث عند غير الفعّال. إذ يتميّز عمله بالمرونة والانتظام والمثابرة واللذة والسهولة. ولتدعيم دراسته عن الفعالية كأحد عناصر الطبع الأساسية عمد لوسين (Le Senne) إلى ضرب مثل فيكتور هوغو (Victor Hugo) الذي كان يجلس إلى مكتبه ساعات طويلة يراجع مخطوطاته بلا كلل. وكان بإمكانه القيام بنشاطات مختلفة في آن واحد تكفي واحدة منها لإرهاق شخص عامي. وفيكتور هوغو شاعر وكاتب مسرحي ومخرج سياسي. وإلى جانب حياته المهنية المرهقة كانت حياته الخاصة مضطربة إذ كانت له زوجة وأولاد يحبهم وعشيقة يمضي إليها كل يوم ويواصلها برسائل كثيرة وكانت له مغامرات عابرة كثيرة.

وبحسب قول لوسين (Le Senne) فإن غير الفعّال يمكن أن يشبه بفترة قصيرة، الفعّال فيحاول اعتماد نظام لحياته،

ولكن فعاليته التي تبدو كبيرة، تتوقف فجأة ليخرج منها منهكاً. فيسقط من جديد في الحياة التي اعتاد عليها والمليئة بالاندفاعات الضعيفة، وبالعياء والمرارة والأحلام الواهية التي تعوّض اللاانفعالية والإحباط اللذين ينتجان عنها.

ويعتبر علماء الطبائع أن هنالك علاقة مهمة بين الانفعالية والفعالية. ولن نذكر في هذا السياق سوى التشبيه الذي أعطاه لوسين Le Senne[(١)] حيث شبّه الإنسان بآلة:

وتشكل الانفعالية «الطاقة» التي تحتاجها الآلة لتعمل. أما الفعالية فهي «المرونة» التي تؤدي العمل المطلوب منها باستعمال الطاقة الموضوعة تحت تصرفها بحد أدنى من الهدر.

ولا يعرف الأشخاص الانفعاليون ـ الفعالون التعب في العمل فيؤدون أعمالهم بحماس. أما عزيمتهم في العمل فمميّزة إذ تسمح لهم بتعديل العالم الخارجي وفق الصورة التي رسموها لأهدافهم. وعلى عكسهم، ينقاد الانفعاليون غير الفعالين نحو حياتهم الداخلية فلا يحاولون الاتصال مع غيرهم كما أنهم لا يتأقلمون مع الحقائق الخارجية.

III ـ الترجيع:

كان عالم النفس الألماني أوتو غروس[(٢)] (Otto Gross)،

---

(١) Traité de Caractérologie ـ مرجع سابق الذكر.

(٢) إن النظريات الفيزيولوجية المعتمدة من قبل غروس تحتمل عدم الدقة لكن التقسيم إلى نمط أولي ونمط ثانوي هو تقسيم واقعي يفسر العديد من علائم الطبع التي يمكننا اختبارها بالتجربة.

أول من تحدث عن الترجيع عام ١٩٠٢. وقد عرّف هذا التعبير على أنه صدى جميع التصورات الخارجية. وفي الواقع تمارس علينا الانطباعات التي نتلقاها أو بصورة أشمل جميع التصورات أثناء وجودها الفعلي، تأثيراً مباشراً يسمى «بالوظيفة الأولية» ولكن حتى عندما تغيب هذه التصورات عن ساحة الوعي الواضح، فإنها تظل «ترجع» فينا وتؤثر في سلوكنا وتفكيرنا وهذا ما سمي «بالوظيفة الثانوية».

ونطلق عامة اسم «الأولي» على الذين تقوم الانطباعات لديهم بوظيفتها الأولية. و«الثانوي» على الذين تترجع انفعالاتهم بشدة، والتي تمارس «وظيفة ثانوية» مهمة.

وقد استُعمل مفهوم الترجيع كمعيار تفاضل في علم الطبائع. ويقسّم العلماء الطبائع إلى مجموعتين:

ـ **أنماط الطبائع الأولية**: إن الأشخاص الذين ينتمون إلى هذه المجموعة ينفعلون على الفور ولكنهم لا يلبثون أن يعودوا إلى حالتهم الطبيعية.

ـ **أنماط الطبائع الثانوية**: يتميّز الأشخاص الذين ينتمون إلى هذه المجموعة عن «الأولين» بالبطء. كذلك يظل صدى الحادث، ولوقت طويل، يترجّع في حياتهم النفسية. إذاً يمكننا اعتبار الأولية والثانوية، موقفين متعارضين وأساسيين يميّزان الأشخاص ويسمحان بتصنيفهم.

فما هي خصائص الطبائع الأولية والثانوية؟ وما هي أنواع السلوك التي تستتبعها؟.

الأولية

إن الأوليين مشدودون دائماً إلى الحاضر وإلى الأحداث التي تحصل فيه. يتأقلمون بسرعة مع الواقع والأشياء كما أن تجاربهم الماضية لا تؤثر فيهم ولا تحددهم. وتستحوذ تأثيرات الحاضر على انتباههم، ووحدها أحداث الحاضر تحدد سلوكهم.

وبالرغم من ردة فعلهم الشديدة والمتطابقة مع الواقع والأشياء، فإن الأوليين ليسوا بالضرورة أكثر فعالية من الآخرين. فهم لا تؤثر فيهم الأحداث ولا تحددهم إلا سطحياً، ولا تتحول إلى تجارب حقيقية يستفيدون منها ويتطورون من خلالها، في المستقبل.

يحب الأولي الحركة، ولكن ما يحبه أكثر هو التغيير في الحركة. فلا يتعلق بالأشخاص ولا بالأشياء، وتُعتبر هذه الرغبة بالتغيير من أهم خصائصه. يفرحه تنوّع المواقف ويريد الحصول على كل ما يريد فوراً ولكن ما أن يحصل عليه حتى ييأس منه ويتركه. وهكذا فإن الأولي في بحث مستمر عن أحاسيس جديدة يعيشها في الحاضر. أضف إلى ذلك أن المصاعب التي يمكن أن تعترضه وخيبات الأمل التي يمكن أن تصيبه لا تؤثر فيه إلاّ سطحياً. جروحه ليست عميقة وتلتئم بسرعة. يحب كل جديد: كالمواقف الجديدة والناس الجدد. يسلو بسرعة وينسى أحزانه. وتمنحه هذه الحركية (عدم الثبات)، ديناميكية مذهلة تبدى بنزوية حادة.

وفي الواقع، إن سرعة ردة فعله تجاه أحداث الحاضر،

تجعله ينفعل ويستجيب على الفور إلى المثيرات الخارجية. فيأتي الجواب فظاً ومتسرعاً.

وسلوك الأولي هذا يجعل المقربين منه ينظرون إليه على أنه شخص نشيط وديناميكي وسريع التأقلم وصلب، وغير مستقر في الوقت نفسه. ولكن عدم الاستقرار هذا يجعله غير جدير بثقة الناس التامة. ويميل هذا الشخص في حياته الاجتماعية إلى السيطرة على الآخرين وينجح في ذلك بفضل الجاذبية التي تضفيها ديناميكيته والتي يمارسها على الأشخاص المرهفين. ومن المؤكد أن هذا الشخص نفسه يمكن أن يكون في بعض الحالات قابلاً للتأثر وسهل الاقناع[1].

ولكن ما هو دور الذاكرة في حالة الطبائع الأولية؟.

إذا كانت حياة الأولي تقع تحت السيطرة المباشرة للأحداث الحاضرة، فإن هذا لا يعني أنه يفتقر إلى الذاكرة. ولكن هذه الملكة، الذاكرة، والتي تثبّت الانطباعات وتعيدها بأمانة نوعاً ما، لا تؤثر تأثيراً هاماً في موقف وسلوك الأولي تجاه الحادثة. وتعود الإثارة الحاضرة دائماً إلى الذاكرة للحصول على معلومات تسمح بالقيام بعمل يكون أكثر تكيّفاً مع الواقع. ويُخضع الأولي ذاكرته لما يحدث في الحاضر وليس العكس كما هي حال الثانوي الذي يعتمد كما سنرى في

---

(١) إن مظهر الطبع الأولي يعبر عن الميل العام للطبع وهو لا يلغي احتمال حدوث تغييرات في بعض علائم الطبع لدى الأشخاص ذوي الطبائع الأولية.

ما بعد، على الذاكرة التي تسجل كل ما يحدث.

وبما أن الأولي يخضع لتقلبات الأحداث الحاضرة، فإن نشاطه متقطع ويرتبط بمواضيع مختلفة متعلقة بتعددية اللحظات. أما عمله فيفتقر إلى التنظيم والترابط وهذا يعني أن شخصيته متقلّبة.

وفي الحقيقة يخيّل إلينا أن الأولي يعيش دائماً من أجل اللحظة، وأنه يتبدّد في الزمان والمكان.

ولكن هذا التبدد ليس مرضياً، بل ينّم عن قدرة مميزة على التأقلم، فهو يتأقلم بسرعة مميزة مع الحاضر، إذاً مع العالم الخارجي. وبفضل هذا التأقلم المباشر والسريع مع العالم الخارجي يعتبر الأولي عامة من المنفتحين اجتماعياً.

الثانوية

إذا كانت صفة الأولي صفة الأشخاص الذين تكون ردات فعلهم الخارجية مباشرة ومفعولها سطحيا وزائلا، فإن الثانوية، على العكس، هي صفة الأشخاص الذين تسيطر عليهم الأحاسيس المطبوعة في الذاكرة وتؤثر في تصرفاتهم وسلوكهم. وتسيطر التصورات وصور الماضي على الثانويين الذين يعيشون ذكرى تجاربهم وانطباعاتهم الماضية التي تراكمت على مرّ حياتهم والتي تُسقط على المستقبل.

فهم لا يعيشون في الحاضر كما هي حال الأوليين، بل يعيشون حاضرهم تبعاً لمستقبلهم. والثانوي يعي تماماً معطيات التجارب لذا فإنه يعرف تماماً كيف يستخلص العبر للاستفادة

منها في أعماله المستقبلية. وبفضل ترجيعهم العميق فإنه يتمكن من التطور والتقدم.

وتكمن الميزة الأساسية لأصحاب الطبائع الثانوية في تعلّقهم بالماضي الذي يوفّر لهم العناصر اللازمة لتصور بعيد للمستقبل. هذا ويحدد الماضي، لدى الثانوي، المستقبل مسبقاً ويوجهه ويرسمه لذا يتميّز عمله بالترابط والتنظيم. وهو أبعد من أن يعيش لنزواته فإنه ينتهج لحياته منهجاً يسير عليه. والثانوي ليس مستعداً للتخلي عن الماضي إذ يعتبره مرشداً له في عمله. ويُترجم ثبات الثانويين في علاقاتهم الاجتماعية باستقرار عواطفهم. فهم ينفّذون الوعد الذي يقطعونه، ويتعلقون بأصدقائهم وذكرياتهم المشتركة كما أنهم يخلصون لصداقاتهم. وبما أنم يحبون كل ما هو ثابت، فإنهم يراقبون قوانين الحياة الاجتماعية ويخضعون لها. ويشتهر الثانويون بالجدية والموضوعية والدقة.

ولكن الثانوي لا ينسى الإساءة التي يتعرض لها، كما أن آلامه لا تزول بسرعة. لذا فإنه يحقد ويضمر الثأر من أعدائه بالانتقام منهم. ولإيجاز مميزات الطبع الثانوي لا بد لنا أن نستشهد بـ لوسين (Le Senne) الذي تحدث عن الثانوي بقوله «تحدد الثانوية مفهوم الهدف البعيد أي مفهوم الوسائل التي تسمح بالتوصل إليه، بدون التطرق إلى المثابرة الضرورية»[١]. ويعدد لوسين (Le Senne) السمات الرئيسية لهذا الطبع كتأثير

(١) Traité de Caractérologie ـ مرجع سابق الذكر.

الماضي والاستقرار والمثابرة والعناد والدقة والتحكم بالنفس وأخيراً القدرة على لجم رغباته والتحكم بنزواته. وهكذا يحل التفكير مكان العفوية عند الثانوي. فهو يمثل الإنسان الذي يعود إلى ذاته باستمرار: إنه منغلق، يعيش في ماض يستبطنه ويُسقطه على المستقبل، وملتزم بكل عمل يقوم به.

على عكس الأولي الذي يملك قدرة كبيرة على التأقلم، فإن الثانوي لا يتأقلم كثيراً مع الأشياء الجديدة ولكنه يستطيع مواجهة المفاجآت بفضل قدرته على التنبؤ، إنه أكثر قوة من الأولي. ولكنه أكثر بلادة وبطئاً منه.

هنا يطرح السؤال: هل يمكننا أن نجد نوعاً من الترجيع: الأولي والثانوي في فئات خاصة من الحالات المرضية؟.

حاول ويرسما (Wiersma)، في أبحاث تتعلق بعلم الطبائع، التوفيق بين السمات المرتبطة بالترجيع وسمات المرضى النفسيين. من خلال هذه المقارنة لاحظ على سبيل المثال أن ردات فعل السوداويين تجاه أغلبية الإثارات الحسية والعاطفية تكون أطول بكثير من المعدّل، وتمتد تأثيرات هذه الأحاسيس بطريقة غير طبيعية. وخلص ويرسما (Wiersma) إلى أن هؤلاء الأشخاص سيكونون ثانويين. ولاحظ في مكان آخر أن ردات فعل المهووسين هي على العكس قصيرة الأمد، وتوّصل إلى القول بأن هؤلاء سيكونون أوليين[1].

---

(١) هذه المقارنة بين العلائم الطبائعية الطبيعية وتلك المرضية ستبحث تفصيلاً في سياق عرضنا لاضطرابات الشخصية.

نخلص إلى القول ان عوامل الطبع الأساسية، التي درسنا كلاً منها على حدة، ليست مهمة إلاّ بالقدر الذي نفهم فيه التركيبات التي تنتج عنها. ولا يمكننا أن نفهم هذه العوالم إلاّ من خلال التركيبات التي تبرز ديناميكية هذه العناصر وعلاقتها ببعضها. إلاّ أن دراسة مفاهيم الانفعالية والفعالية والترجيع منفصلة عن بعضها، تسمح لنا بالتقاط الفروقات وبوصف مفّصل عن مميّزات كل واحد منها. وهذه المميّزات يصعب استنتاجها من خلال التركيبات حيث لا تظهر أبداً دفعة واحدة وتتغيّر نوعاً ما.

ب ـ العوامل التكميلية:

صحيح أن عوامل الطبع الأساسية، كالانفعالية والفعالية والترجيح. هي أكثر العناصر تحديداً لسلوك الإنسان وتطور شخصيته، إلاّ أن تحليل هذه العوامل فقط لا يسمح لنا بالإحاطة الشمولية ببنية الشخصية والتنبؤ بردات فعل الإنسان في هذا الظرف أو ذاك في الحياة وفي العلاقات الاجتماعية.

وللتوصل إلى معرفة سلوك الإنسان الداخلي والخارجي في آن واحد والتنبؤ به، يجب الأخذ بعين الاعتبار الدور الذي تلعبه «العوامل التكميلية» للطبع والتي تجعل من هذا الأخير صفة الإنسان الشخصية والمميزة.

هذه العناصر التكميلية هي:

١ ـ سعة ساحة الشعور.

٢ ـ مارس أو القتالية.
٣ ـ فينوس أو الإغواء.
٤ ـ الجشع.
٥ ـ الاهتمامات الحسية.
٦ ـ الحنان.
٧ ـ الشغف الفكري (الثقافي).

١ ـ سعة ساحة الشعور:

إن التصورات الواردة من الخارج كثيرة في كل لحظة وبإمكانها أن تجنّد كل حواسنا وتثير فينا عدداً كبيراً من الأفكار. ويسبب من الترجيع تختلف ردات فعل الأشخاص تجاه التأثيرات الخارجية. فكل شخص يسجّل كل ما يأتيه من الخارج على طريقته الخاصة وذلك حسب طبيعة «ساحة شعوره».

أما من حيث ساحة الشعور فإنه يمكننا التمييز بين طائفتين متناقضتين من الشعور:

ذوو الشعور العميق:

تُسجل بعض التصورات لدى هؤلاء الأشخاص دفعة واحدة. وتمتاز تصوراتهم بحدتها ودقتها.

ومع أن فكرهم نقي، إلاّ أنه لا يسجل الكثير من التصورات. ويحلل ذوو الشعور العميق الأشياء بدقة ووضوح، و«أفكارهم واضحة وجليّة» كما يقول ديكارت (Descartes)

ترضيهم البراهين الدقيقة التي لا تهمل أي جانب. لا يتخلون عن فكرة إلاّ بعد توضيح كافة جوانبها. وعندما يناقشون أي أمر يرفضون ترك أي شيء غامض قبل الانتقال إلى مسألة أخرى.

يحب ذوو الشعور العميق كل ما هو واضح وجلي: يحبون التناسق والتناقض في الألوان والأشكال، والأشكال الهندسية.

ذوو الشعور الواسع:

إن ساحة تصوراتهم الواعية، واسعة وخصبة جداً وإنما غير منظمة وغامضة. إن ذوي الشعور الواسع حدسيّون أكثر من كونهم دقيقين. يحبون الأحلام ونتاج الخيال، ويجدون المتعة في الأجواء الغامضة حيث تفتقر الأشياء إلى الوضوح والدقة. ويُشكل الواقع الخارجي بالنسبة إليهم «كلا» يجب التعرف عليه بمجمله وليس بجزئه. وبعكس ذوي الشعور العميق، لا يحبذ ذوو الشعور الواسع التحليل الذي يضعف الواقع ويحوله إلى «شيء» جامد بدل اعتباره كلاً حياً.

إن نمطي الشعور الواسع والعميق لا يمكن أن يلتقيا أبداً. وفي الواقع يكره ذوو الشعور الواسع كل ما يفرق ويميّز بين الأشياء كما يمقتون الأفكار الواضحة المجردة من الأحلام والغموض. في حين يميل ذوو الشعور العميق إلى القول بأن التصورات الحدسية والغامضة، باطلة.

٢ ـ مارس[١] أو القتالية:

يحب الشخص الذي تظهر عنده سمات طبع «مارس» أن يفرض نفسه على الآخرين بالقوة وهو محب للقتال، عدائي، مجادل، ويكره عامة القيام بتنازلات.

يظهر النموذج «مارس» الكثير من الحيوية والديناميكية كما يتميز برغبته بالنجاح في الأعمال التي يقوم بها لإثبات جدارته وإرضاء ذاته وطموحاته.

وليس من الضروري أن يتصف حبه للقتال بالشر إلاّ أنه يبدو عدائياً بمعارضته للآخر. وتُترجم هذه القتالية بالرغبة في الوصول إلى الهدف المنشود بالرغم من كل المصاعب التي تعترض طريقه والتي تضاعف قوته بدل أن تثبط عزيمته. هذه العدائية تجعله مقاتلاً وغاضباً وصعب المراس. انطلاقاً من كل هذا نقول أن هنالك شبهاً بين النموذج «مارس» و«العدائي». في الواقع أن مضاعفة مجهود النموذج «مارس» إزاء المشاكل تشبه إلى حد ما زيادة حدة الميول العدوانية الطبيعية للشخص إزاء ظاهرة الإحباط[٢].

إلاّ أن الفرق بين النموذج «مارس» و«العدائي» يكمن في

---

(١) في الأساطير الرومانية نجد أن «مارس» هو إله الحرب وقد استعار Berger. G. هذا الاسم واستخدمه في علم الطبائع.

(٢) حاول بعض علماء النفس قياس العدوانية ومنهم روزنفايج الذي حاول إثارة ردود الفعل العدوانية من خلال التعريض للمواقف الاحباطية (عن طريق الإسقاط في اختباره).

أن هذا الأخير يمكن أن يجد نفسه في موقف تنازعي مع كل محيطه في حين أن النموذج «مارس» يقرر نوعية الموقف الذي سيتعرض له أمام الآخرين، ويوجه قتاليته إلى هدف يرسمه مسبقاً وبوعي تام. على عكس العدائي الذي يخوض صراعاته بدون أهداف مسبقة وواعية. لقد سمحت لنا هذه المقارنة السريعة بالتمييز بين العدائية التي هي ميل لا واع، والقتالية التي هي استعداد واع للنضال من أجل بلوغ الهدف المنشود. إنه فعل الإرادة الواعية التي توجه طاقة الشخص بأكملها والتي تتجلى في نشاط منظم.

٣ ـ فينوس[١] أو الإغواء:

يسعى النموذج «فينوس» كذلك، إلى فرض نفسه على الآخرين ولكن ليس بالقوة كما هي الحال عند النموذج «مارس» بل بلطف، بواسطة الإغواء. فهو يتسلح دائماً بسحره لكي يفرض نفسه. ونذكر في هذا السياق حالة الكاردينال مازاران (Mazarin) الذي يعود الفضل في نجاح حياته السياسية إلى سحره الذي يتسلح به ويعتمد عليه:

«. . . أكتُم، أوارب وألطِّف ما دام هذا ممكناً، أما إذا طرأت حاجة ملحة فإنني سأجعل الناس يرون ماذا يمكنني أن أفعل. . .»[٢].

---

(١) فينوس هي آلهة الحب في الأساطير الرومانية.
(٢) August Bailly: Mazarin, P.49.

ويمكن أن يتعايش العاملان «مارس» و«فينوس» في شخص واحد كما يمكنهما أن يظهرا بالتعاقب. على أن نتيجة وجود هذين العاملين عند الشخص نفسه يمكن أن تجعل منه شخصاً مسيطراً قوياً. هذا ويعتبر الجنرال ديغول (De Gaulle) قادراً على إظهار قدرته على المقاومة والإغواء باستمرار وبكثير من الطبيعية. كما أن الليدي ماكبث (Macbeth)[1] هي نمط الشخص الذي تجتمع فيه صفات مارس وفينوس، فهي قادرة على الإغواء ولكنها في الوقت نفسه خطر خفي. وهي لا تتردد في التحول إلى مجرمة (مارس). ولكنها تصبح أكثر أنثوية في حضرة (Duncan) وفاتنة بدلالها (فينوس). وكل هذا من أجل الخداع لإحراز النصر في ما بعد.

وهي تخفي صفة القتالية تحت قناع الإغواء، أما السلاح الذي تعتمده فيكمن تحت قناعها.

وأكّد غاستون برجيه (Gaston Berger) بعد أن ميّز بين النموذجين «مارس» و«فينوس»، أن التحليل الحسابي قد أظهر بعد سلسلة من التجارب أن الإنسان يمكنه أن يكون:

- إما مارس: شخص قتالي.
- إما فينوس: شخص فاتن. (إغواء).
- وإما مارس وفينوس: وهو الشخص الذي تجتمع فيه صفة القتال والإغواء.

---

(١) شكسبير ـ ماكبث.

ـ وأما ليس «مارس» ولا «فينوس»، وهو الشخص الذي لا يعتمد القتال ولا الإغواء للوصول إلى أهدافه المنشودة. ومن المهم الإشارة إلى أن وجود عوامل «مارس» أو «فينوس» عند شخص ما ليس له أية علاقة بوجود أو غياب النشاط، كأحد عوامل الطبع الأساسية.

فلا تظهر القتالية ـ على سبيل المثال ـ عند الفعّال فحسب بل هي تظهر عند غير الفعّال على حد سواء، ولكن هذا الأخير يتعب بسرعة من المجهود الذي قام به، على عكس الفعّال، الذي يميل إلى كبح جماح صفة القتالية عنده وكفّها.

٤ ـ الجشع:

إن الجشع كما عرّفه غاستون برجيه (Gaston Berger) هو أخذ وامتلاك كل شيء، إنه «حاجة إدخال العالم الخارجي في ذاته وإلى إحالته إلى مادته»[١].

ويمارس الطفل الجشع خاصة في ما يختص بالطعام الذي يشكل علاقة مميّزة مع العالم الخارجي.

أما عند الراشدين فيأخذ الجشع أشكالاً مختلفة فيتجلى على شكل رغبة في الامتلاك والتفرد بتكديس الأرباح والأمجاد.

---

(١) Berger. G: Traité pratique d'analyse du Caractère, P.U.F. Paris, 1963, P.94.

وهكذا يتيح الجشع أمام الراشد أن يثبت نفسه أمام الغير وأن يمارس سلطته عليه. ولكن هذه الرغبة في الامتلاك لا تتجلى على النحو نفسه عند مختلف أنماط الطبائع إذ تستتبع تصرفات تختلف من الانفعالي إلى اللاانفعالي ومن الفعّال إلى غير الفعّال. وتتجلى هذه الرغبة عند المولع الذي هو فعّال وانفعالي في آن واحد، على شكل حب النفوذ والاستيلاء. أما عند العاطفي الذي هو انفعالي وغير فعّال فتتجلى هذه الرغبة في البخل.

كذلك تختلف أشكال الجشع من النموذج «مارس» إلى النموذج «فينوس». فإذا كان الإنسان ينتمي إلى النموذج «مارس» استولى على الأشياء بالعنف. وعلى العكس، فإذا كان من النموذج «فينوس» حصل على الشيء نفسه بطريقة أكثر ديبلوماسية وبكثير من البراعة إذ يعمد إلى الإغواء بدل العنف. إن الجشع، أكثر من كونه رغبة في الامتلاك، هو رغبة في الوجود، وفي الحياة. إنه أكثر من الامتلاك، إنه الوجود بحد ذاته. وفي هذا السياق يمكننا ذكر مثال قيصر الذي أعطاه غاستون برجيه (Gaston Berger) لتوضيح معنى الجشع:

بدأ قيصر بالبكاء وهو يقرأ سيرة حياة الاسكندر إذ كيف يغزو شخص مثل الاسكندر العالم في سن مبكرة في حين أنه لم يقم بأي شيء لإثبات نفسه. وبعد فترة، مرّ بقرية فقيرة فقال: أفضّل أن أكون الأول في هذه القرية من أن أكون الثاني في روما.

إن الجشع كالانفعالية، هو قوة قادرة على تجنيد كل طاقة الإنسان للوصول إلى أهدافه. وهو يتجلى في الطموح والإرادة والرغبة في الامتلاك وإرادة الوجود.

٥ ـ الاهتمامات الحسية:

تتغلب لذة الإحساس عند الأشخاص الذين لديهم اهتمامات حسية قوية على المحتوى الموضوعي لهذه الأحاسيس. إنها الحسية كاستعداد للتمتع باستقبال الأحاسيس الخارجية. وهي علاقة خاصة مع الواقع الذي يلتقطها مباشرة متجاهلاً التصورات الهوامية التي تتأتى عن هذا الواقع. وبهذا المعنى قال أندريه جيد (André Gide): «لا يكفي أن أقرأ عن الرمل أنه ناعم بل أريد أن أتحسسه بقدمَي»[١].

إن الحرمان من اللذة الناتجة عن الحواس يعني بالنسبة لهؤلاء الأشخاص تجاهل حاجاتهم. فالحاجة هنا ليست أبداً محتوى الأحاسيس بل إنها الإحساس بحد ذاته. والإحساس بالنسبة إليهم ليس وسيلة بل غاية بحد ذاتها. ويمكن أن تتجلى هذه الاهتمامات الحسية في ميادين مختلفة فتظهر في الأحاسيس الأكثر بساطة لتشمل أعلى قيم الحضارة البشرية المرتبطة بالمتعة كالموسيقى، والفنون التشكيلية، والمسرح والرقص والسينما وحتى الأدب. وهكذا يمكن أن يكون لدى

---

(١) Gide. A: Les Nourritures terrestres.
وهذا المؤلف مفعم بالإحساسية بكل أشكالها من أجل ذاتها.

الأشخاص الذين تتجلى لديهم الاهتمامات الحسية، طبيعة فنان، ولكن هذا لا يستتبع بالضرورة الإبداع الذي يظهر على شكل حاجات جمالية ملحّة.

٦ ـ الحنان:

الإنسان الحنون هو الذي يتعاطف تلقائياً مع الآخر. وهذا التعاطف متوقّد لدرجة أنه ينسى نفسه ليظهر إيثاره. يتعذب مع الآخرين وينسجم معهم.

ويتجلى هذا الحنان خاصة تجاه الضعفاء والمرضى والجرحى والأطفال والفقراء. ويتوضّح تجاه الحيوانات التي تعتبر ككائنات حية والتي تستحق الشفقة والرأفة. وليس الانفعاليون فقط هم الذين يظهرون الحنان تجاه الآخرين إذ يمكن أن نجد هذه السمة أيضاً عند غير الانفعاليين الذين يتعاطفون مع الآخرين دون أن ينفعلوا بشدة. ونذكر في هذا السياق مثل (Montaigne) الذي قال «أتعاطف بحنان كبير مع أحزان الآخرين وأبكي بسهولة مع أصدقائي إذا كنت أعرف كيف أبكي، في أية مناسبة من المناسبات». وهكذا فإن الحنان يظهر الإيثار أكثر من الانفعالية وهو يتجلى خاصة عند الأشخاص المنفتحين.

٧ ـ الهوى الثقافي:

إن الهوى الثقافي هو رغبة قوية في الفهم وهو يختلف عن الذكاء الذي هو قدرة على الفهم. ولا يشبه الهوى الثقافي

أيضاً الحاصل الفكري كمقياس للذكاء. إنه غريزة تختلف عن الغرائز البيولوجية الأساسية وتشبهها في تجليها برغبة تجتاح الإنسان وتنشد الإشباع.

وكأي هوى آخر يعتبر الهوى الثقافي تطلعاً يخضع له الإنسان بمعزل عن إرادته.

ويمكن أن يصبح الهوى الثقافي عيباً، فيسيطر على الإنسان كشغف ورغبة.

كما يؤدي إلى التفرّد فيصبح نشاط الشخص كله محصوراً في خدمة هذا الهوى.

ويمارس هذا الهوى ضغطاً مستمراً على الشخص من حيث الإثارة التي تحث نشاطه، فيجد نفسه خاضعاً لهذه المثيرات التي يؤمن إرضاؤها لذة يتعذر استبدالها، وهو مثابر لا يعرف الكلل كأي عاشق لا يحس بالمجهود الذي يبذله لإرضاء هواه.

إن هذه الرغبة في المعرفة، وخاصة في الفهم، غير متعلقة بأية فائدة عملية أو بقلق التطبيق. إنها المعرفة لأجل المعرفة. وهكذا فإن الهوى الثقافي غايته الخاصة التي لا تدخل في نطاق النفعية والذرائعية. ونادراً ما نجد الهوى الثقافي في الحالة الفطرية لشخص ما. وفكر غاستون برجيه (Gaston Berger)[1] أن هذا الهوى الثقافي موجود في فكر ديكارت

---

(١) Traité pratique d'analyse du Caractère ـ مرجع سابق الذكر.

(Descartes) الذي يضع «التأمل» في أرفع المستويات ويعتقد بأنه الأكمل. ولا يكتسب الواقع أهمية بالنسبة إليه إلاّ في حال وجود مشاكل يجب درسها وحقيقة يجب الكشف عن نقابها.

صحيح أن ديكارت (Descartes) كان يحركه هوى معرفي قوي يتجلى في بحثه عن الحقيقة وبشكه المنهجي وبمنهجه المبني على أسس حسابية. غير أن ديكارت (Descartes) قد أعلن بنفسه أنه يريد إثبات معرفة تجعله «سيّد الطبيعة ومالكها». وهكذا فإن غاية الهوى المعرفي كانت خارج نطاق ذاته، لقد كانت في الرغبة بالسيطرة على الطبعية بواسطة المعرفة. وحتى عندما يبدو لنا أن الهوى المعرفي موجود في حالة الإنسان الفطرية، فإن رغبة مترسخة بعمق في لا وعي الشخص تحرك هذا الهوى، وهي رغبة الامتلاك والسيطرة، أو بالأحرى إرادة القوة الكامنة في نفس هذا الشخص.

يظهر الهوى الثقافي عامة عند الفلاسفة، والعلماء، والباحثين، والأدباء الذين يكرّسون كل حياتهم لإرضاء هذه الرغبة. فمثلاً كانت هذه الرغبة تشعل ليونارد دا فينشي (Leonard De Vinci). وبهذا المعنى قال: «كلّما عرفنا أحببنا».

كذلك قال غوته (Goethe) إنه يعيش ليفهم...

إن دراسة عوامل الطبع الأساسية والمكملة تسمح لنا بمعرفة الأنماط الطبائعية وتصنيف الطبائع بحسب هذه الأنماط، وبالتنبؤ لكل طبع بردات فعله أو تصرفاته في هذا

الموقف أو ذاك. وفي الواقع تملي بنية الشخصية ردات فعل الأنا وتصرّفها تجاه العالم الخارجي. وتشمل هذه البنية الشخصية الاجتماعية واللاوعي وما قبل الوعي والطبع الذي يشكّل النواة التي تعتبر الأكثر تحديداً[1].

وهكذا يمكننا القول انه لكل نمط من الطبائع، أنماط تصرّف وأنماط استجابة للمحركات الخارجية. وأنماط الاستجابة والتصرّفات الداخلية والخارجية يمكن أن تشبه سمات الطبع. ولكل شخصية سمات طبع مختلفة خاصة بها. إن هذه السمات هي نتيجة تداخل العناصر المختلفة التي تشكّل الشخصية والمرتبطة مباشرة بتاريخ الإنسان الشخصي.

ويبدو حالياً أن معظم علماء الطبع متّفقون على أن الطبع ثابت. ويرتبط هذا الثبات بالمعطيات الفطرية للأنا، وبالعوامل المكتسبة من قبل ومن ثم في ما بعد.

ويضاف إلى هذه المكتسبات التثبيتات والنكوصات الحتيمة. التي ستعيد تشكيل الطبع (أو تشويهه) لإعطائه شكله الأخير عند نهاية أزمة المراهقة.

إذاً فالطبع الذي يتشكّل في البدء من عوامل أساسية فطرية سيتقلب كثيراً قبل أن يأخذ شكله النهائي. وهذا الشكل النهائي هو الذي يؤلف نواة بنية الإنسان الناضج. وبالإضافة إلى الطبع الأساسي، تشتمل الشخصية أيضاً على سمات الطبع التي تتلاءم كما سبق أن رأينا مع أنماط ردات الفعل وتصرفات

(١) دون أن يعني ذلك إلغاء تدخلات اللاوعي أو إنكارها.

الأنا. ولا توجد سمات الطبع عند تشكّل الطبع إلاّ بالقوة، فتنتظر لكي تتفعّل وتتحقق.

ولا تنتقل هذه السمات من القوة إلى الفعل إلا خلال المراحل المختلفة لتطور الشخصية. ولكن يجب التوضيح أن هذا الانتقال من القوة إلى الفعل لا يتم على قدم المساواة عند كل السمات. إذ إن أحداث حياة الإنسان الشخصية وتأثيرها في تطور شخصيته ستتيح المجال أمام بعض السمات لكي تتطور بينما ستعمد إلى كبت البعض الآخر.

وإذا حدث أن كُبتت سمة ما فإنها ستبقى على هذه الحالة مدة طويلة كما يمكنها أن تتطور عندما تكون أحداث حياة الإنسان الشخصية ملائمة لهذا التطور.

كذلك إذا كانت سمة ما متطورة جداً فمن الممكن أن تأخذ بعداً غير طبيعي بالنسبة للشخصية بأكملها إلى حد أنها تصبح بارزة وحتى مرضية، فتؤدي إلى اختلال توازن بنية الشخصية أو حتى إلى مرضها.

وهكذا إذاً تبيّن أن شخصين متشابهين من حيث اشتراكهما في نمط الطبع نفسه، فإنهما يختلفان من حيث تطور سمات طبعهما المتفاوت. وبما أن هذين الشخصين يختلفان من حيث الشخصية والتاريخ واللاوعي والمحيط الخارجي، فإنها سيطوّران سمات طبع مختلفة وبالتالي يصبح لديهما شخصيتان مختلفتان. في الصفحات اللاحقة سنقترح جدولاً لمختلف أنماط الطبائع والسمات المتعلقة بكل نمط من الطبائع المعروفة في النظريات التي اقترحها كل من (René Le Senne) و(Gaston Berger).

جدول أنماط الطبائع وسماتها الخاصة

نمط الطبع	الصيغة	الانفعالية	الفعالية	الترجيع
PASSIONNE				
الشغوف	E.A.S.	اندفاعي	نشيط	بعيد النظر
(المولع)	(انفعالي، فعّال، ثانوي)	عنيف	مثابر	ذاكرته طيّبة
			عملي	حسّ الملاحظة
			عازم	خدوم
			سريع الفهم	عطوف على من هم دونه
			طبيعي	حب الوطن
				الشعور الديني
				محافظة في السياسة
				ميل إلى المجتمع

نمط الطبع	الصيغة	الانفعالية	الفعالية	الترجيع
				اقتصادي
				دقيق
				يحب الحيوانات
				ملازم للبيت
				وفيّ لأصدقائه
				منظم ونظيف
				قليل الدبلوماسية

نمط الطبع	الصيغة	الانفعالية	الفعالية	الترجيع
COLERIQUE الغضوب	E.A.P. انفعالي، فعّالي، أولي	اندفاعي عنيف حسّاس يحب الأطفال ذاتي	دائم الانشغال مثابر مقاتل يحب إصدار الأوامر نشيط في السياسة الحسّ العملي	عواطف متحركة سريع التعزي مزاج مرح يحب التغيير سطحي خطيب ماهر مبذّر غير صبور في المرض تثبط عزيمته بسهولة

نمط الطبع	الصيغة	الانفعالية	الفعالية	الترجيع
SENTIMENTAL				
العاطفي	E.n.A.S.	عنيف	خجول	يحب الوحدة
	(انفعالي، غير فعّال، ثانوي)	سريع الاهتياج	متردد	قلق
		اندفاعي	حسّ عملي	حرون
		متردد	قليل النضج	يجتر الأفكار
		غير شجاع	مقتنع بفشل أعماله	يحب الذكريات
				متعلّق بعاداته
				ملازم للبيت
				مكتئب قاتم
				غير راض عن نفسه
				طيب مع من هم دونه
				متشائم
				مشكّك
				محافظ في السياسة

نمط الطبع	الصيغة	الانفعالية	الفعالية	الترجيع
NERVEUX				
العصبي	E.n.A.P.	اندفاعي	مهمل	كثير الحركة ومنشغل
	(انفعالي، غير فعّال، أولي)	عنيف	قليل المثابرة	متقلّب المزاج
		حسّاس	نشاط جنسي غير منتظم	سريع التعزي
		كثير الضحك	حسّ عملي ضئيل	ذاكرة مضطربة
		ذاتي		غير صبور في المرض
		خيال مبدع		غير ملازم للبيت
		سهل الانطباع		محّب للتغيير
				سطحي
				مبذر
				محّب للأمجاد
				غير منظّم
				مزهّو بنفسه

نمط الطبع	الصيغة	الانفعالية	الفعالية	الترجيع
FLEGMATIQUE البارد	n.E.A.S. (غير انفعالي، فعّال، ثانوي)	هادىء بارد موضوعي صامت متسامح عفة جنسية شجاع نادر الضحك	دائم الانشغال غير مهمل مثابر عازم	منغلق منظم ومنهجي متعلق بعاداته ملتزم بمبادئه ذاكرته طيّبة وفي لأصدقائه يحب التنظيم لا يحب الفن كثيراً اقتصادي لا يميل إلى الاستفادة جدير بالثقة

نمط الطبع	الصيغة	الانفعالية	الفعالية	الترجيع
				دقيق في المواعيد روح النكتة يحب الحيوانات ملازم للبيت

نمط الطبع	الصيغة	الانفعالية	الفعالية	الترجيع
SANGUIN				
الدموي	n.E.A.P.	هادىء	دائم الانشغال	يفتش عن نتيجة سريعة
	(غير انفعالي، فعّال، أولي)	موضوعي	حسّ عملي	متفائل
		سيد ذاته	سريع الفهم	مزاج مرح
		فكر واضح	يحب الرياضة	يحب الرسم
		متسامح	مهارة يدوية	خطيب ماهر
			ميل كبير إلى الجنس	مرتجل
			روح المبادرة	يحب الحساب والعلوم
				دبلوماسي
				يحب التحليل
				يكره التنظيم

نمط الطبع	الصيغة	الانفعالية	الفعالية	الترجيع
غير الودود APATHIQUE	n.E.n.A.S.	رصين	نادر الانشغال	رجل مبادىء
	(غير انفعالي، غير فعّال، ثانوي)	هادىء	مهمل لعمله	حزين وقاتم
		مفكر	قليل المثابرة	يجتر الأفكار
		أناني	خامل	حرون
		قاس	متردد	اقتصادي
		غير عطوف	حس عملي ضئيل	محافظ في السياسة
				منظم ونظيف
				يحب العزلة
				بخيل
				لا يحب التغيير
				شعور ديني ضئيل

نمط الطبع	الصيغة	الانفعالية	الفعالية	الترجيع
AMORPHE اللامتشكل	n.E.n.A.P.	رصين	مهمل	تثبط عزيمته بسرعة
	(غير انفعالي، غير فعّال، أولي)	هادىء	متردد	مثقل بالدين
		بارد	مشاريع متقطعة	شعور ديني منعدم
		موضوعي	روح عملية متوسطة	يحب القمار
		متسامح		قليل الدقة في مواعيده
		عنيد		يحب المآكل الطيّبة
		صامت		
		أناني		
		قليل الانفتاح		
		شجاع		
		غير عطوف		
		روح وطنية ضئيلة		
		روح الخدمة ضئيلة		

الفصل الرابع

الشخصية المرضيّة

يستلزم تعريف الشخصية المرضية قبل أي شيء، تعريف مفهوم «الطبيعية»، كما يثير مشكلة من أكبر مشكلات النظريات النفسية وهي جدلية الطبيعية ـ المرضية.

وفي دراسة نُشرت عام ١٩٣٨ تحت عنوان «في البحث عن معيار الأمراض النفسية»[١]، شدّد مينكوفسكي (Minkowski) على ذاتية مفهوم «المعيار». وغالباً ما يبدو التمييز بين «الطبيعي» و«المرضي» غامضاً. ومن جهته، يعرّف كانغيلم (G.Canguilhem) المرض على أنه نوع من تخفيض هامش الاحتمال بالنسبة إلى البيئة. فتصبح «الطبيعية» إذا مرادفة «للتكيّف». انطلاقاً من هذا التعريف لمفهوم الطبيعية يمكننا أن نعتبر بعض الحالات المرضية بمنزلة الطبيعية وذلك من حيث قدرتها على إقامة علاقات طبيعية مع الآخرين.

كذلك في حال إظهار الفرد نوعاً من «التكيّف» مع بيئته

---

(١) Minkowiski. E: A la recherche de la norme en psychologie, rév. Evolution psychiatrique, N°2, (1939).

على الرغم من وجود بعض سمات الطبع المرضي، فإنه يمكننا أن نضعه في حدود «الطبيعية».

وانطلاقاً من مفهوم «الطبيعية المرضية»، يمكننا عرض هذه الجدلية بين الطبيعية والمرضية التي توجد في بنية كل شخصية. في الواقع تظهر في كل شخصية ميول مرضية. ويمكن أن تحقق الشخصية ميولها المرضية وأن تطوّر سماتها المرضية العصابية أو الذهانية، خلال تطوّرها وتحت تأثير المصاعب الناجمة عن المحيط أو الصدمات التي تعرض لها الشخص في تاريخه الشخصي. وتنتفي صفة المرض عن الشخصية التي تستطيع دوماً التأقلم مع المحيط بالرغم من السمات المرضية التي تظهر فيها. إذ تكون الشخصية في هذه الحالة في حدود الطبيعية مع وجود سمات مرضية. ويسمح لنا مفهوم «الطبيعية المرضية» بوضع نظريات عن الشخصية الطبيعية لإدخال أنماط الشخصيات الموجودة على حدود الطبيعية والمرضية. وانطلاقاً من هذا نصل إلى موضوعية كبيرة باعتماد نظرية تكون أقرب إلى واقع الإنسان النفسي.

وإذا ظهرت في واقع كل شخصية ميول مرضية، فإن على كل نظرية التشديد على هذه الميول التي يفسر تحقيقها انتقال الشخصية من «الطبيعية» إلى «المرضية».

ولتوضيح هذه الجدلية بين الطبيعية والمرضية، فإننا سنعرض لتصنيفات الأنماط التي وضعها كل من رايخ (Reich) ويونغ (Jung) وسوندي (Szondi) ونظرية الجشتالت (Gestalt)،

التي تبرز السمات المرضية لمختلف أنماط الشخصية والتي تنطبق، على حد سواء، على الشخصية الطبيعية.

وسيتبع هذا، عرض أنماط الشخصية المرضية مع السمات الخاصة لكل منها[1].

إنها مدارس أنماط تنطبق كما سنرى على الشخصية الطبيعية على حد سواء وتعبّر بطريقة ملائمة عن الجدلية بين الطبيعي والمرضي: ميزة واقع الإنسان النفسي.

أ ـ مدرسة أنماط رايخ (Reich):

لقد اعتبر رايخ (Reich)، تلميذ فرويد (Freud) أن الطاقة الجنسية أو الليبيدو هي التعبير الأساسي للجسم كحقيقة جسدية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بنشاط الجهاز العصبي ـ النباتي. وتشكل هذه الطاقة أيضاً ما أسماه رايخ (Reich) بالأورغون (Orgone) وهو طاقة كونية أساسية موجودة في الكون، وحقيقة مادية أي يمكن رؤيتها، وقياسها وتجربتها، ولكن ماديّتها تختلف كلياً عن المادة الجامدة. وحاول رايخ (Reich) انطلاقاً من هذه المفاهيم أن ينتهي باقتراح نظرة توفيقية تربط بين اللاوعي والجسد.

وقد أعاد الكسندر لوڤن (Alexander Lowen) أعمال أستاذه رايخ (Reich) محدداً خمسة أنماط للشخصية، أطلق

(١) مجموعة من الباحثين: مجلة الثقافة النفسية ـ ملف العدد السادس «الشخصية ـ قراءات مختلفة للإنسان».

عليها اسم الأنماط الطاقوية ـ الحيوية (Bioénergétiques)[1].
وهذه الأنماط هي:

١ ـ النمط الفصامي (Schizoïde):

يتميّز هذا النمط بعدم تناسب أجزاء الجسم العليا والسفلى. أما بالنسبة لطاقة هذا النمط فهي متجمدة بحيث نلاحظ حيوية ضئيلة جداً في الأعضاء التي تصله بالعالم الخارجي (اليدان، الوجه، الأعضاء السفلى والأعضاء التناسلية. . .).

هذا الانفصال بين الجسد والطاقة ينعكس جلياً في شخصية صاحب هذا النمط الذي نلاحظ لديه ميلاً للانعزال عن العالم الخارجي يخفي وراءه «أنا» واهية ووعياً متدنياً للذات. أما بالنسبة لسوابق صاحب هذا النمط النفسية، فإننا نلاحظ أنه شعر في طفولته بتخلّي أمه عنه، وهذا هو سبب شعوره بأنه مهدد دائماً. وهذا النمط عرضة للانهيار.

٢ ـ النمط الفمي:

إن جسم صاحب هذا النمط طويل ونحيل، أما بالنسبة لطاقته فهي دون المتوسط. ويتميّز القسم الأسفل من الجسم بنقص في الطاقة. يتنفس صاحب هذا النمط بشكل سطحي

---

(١) الثقافة النفسية (مجلة) ملف الشخصية ـ المرجع السابق. مع الإشارة إلى أن مبدأ الطاقوية ـ الحيوية تحول اليوم إلى نظرية علاجية متكاملة تمارس على نطاق واسع في الولايات المتحدة وبعض البلدان الأوروبية.

وسريع بسبب التثبيت في المرحلة الفمية، وهذا يعود إلى تعرضه المبكر للفطام وأيضاً إلى النمو النفسي ـ العضوي المبكر بسبب حاجته إلى التعويض عن التثبيت الفمي.

يتميّز صاحب هذا النمط بتقلب المزاج ويكونه عرضة للإصابة بالأمراض التنفسية.

٣ ـ النمط النفسي ـ المرضي (Psychopathe):

يمتاز هذا النمط من جهة، بميله إلى إنكار وتجاهل انفعاليته وردات فعله الانفعالية، وبمحاولته للسيطرة على الآخرين والتحكم بهم من جهة أخرى. وينقسم هذا النمط بدوره إلى فئتين.

ـ المتسلط: حيث تتركز طاقته في القسم الأعلى من جسمه. نظرته حذرة وجفونه نصف مغمضة لكي يتمكن من رؤية الأشياء ومراقبتها.

ـ الفاتن: يكون جسده أكثر تناسقاً وظهره مرناً.

وينبع رفض صاحب هذا النمط لردات فعله الانفعالية من رفضه لاعترافه بحاجته للمساعدة والدعم. إنه يعتقد أن الناس هم الذين يحتاجون إليه وبالتالي يجب ألاّ يعترف بحاجته إليهم. أما بالنسبة لسوابق هذا الشخص النفسية فهي من نوع الهجر والفتنة التي قام بها أحد الوالدين من الجنس المخالف لجنس صاحب النمط.

ويكون هذا النمط عرضة للإصابة بالاضطرابات القلبية.

٤ ـ النمط المازوشي (Masochiste):

المازوشي هو الذي يتألم، ويشتكي ويتضّجر، ولكن يلّذ له الاستمرار في تحمل الألم.

ويكبت النمط المازوشي عدائيته وكذلك إحساسه بالتفوّق. وفقدانه للحيوية يمنعه من استعمال طاقته والمطالبة بحقوقه، فيكتفي بالشكوى. وقد عرف هذا النمط في طفولته أماً متسلطة وأباً سلبياً وخاضعاً، بحيث يتركز اهتمام الطفل على إرضاء متطلبات أمه. ويكون هذا النمط عرضة للإصابة بالاضطرابات الغددية والسكري بوجه خاص وأيضاً بقرحة المعدة[١].

٥ ـ النمط الصارم (Rigide):

يميل هذا النمط إلى الوقوف مستقيماً ويفخر بدون أن يحني رأسه، فهو يخشى الخضوع. ويملك هذا الشخص مخزوناً قوياً من الطاقة يتيح له التعامل مع العالم الخارجي انطلاقاً من مبدأ الواقعية (son moi connaitun développement trés sain. Il s'y fie toujours). ويربط هذا النمط الحب بالجنس ويشعر بجرح في كبريائه (نرجسيته) إذا ما تعرض للرفض الجنسي. ومن الأرجح أن يكون هذا النمط قد تعرض في الماضي لتجربة الإحباط الجنسي وهو بدوره عرضة للذبحة القلبية.

---

(١) محمد أحمد النابلسي: الأمراض النفسية وعلاجها، المنشورات الجامعة، طبعة ثانية ١٩٨٧، ص ٩٣.

ب ـ مدرسة أنماط يونغ (Jung):

لقد اهتم يونغ (Jung) بدوره بمدارس الأنماط النفسية. فركز على نمطين أساسيين: المنغلق اجتماعياً والمنفتح اجتماعياً، مبنيين على ثابتتين في الشخصية: الانغلاق والانفتاح.

ويمتاز المنغلق اجتماعياً بالانغلاق على نفسه، بمعايشة داخلية حادة. وهو لا يحاول الاتصال بالآخرين كما أنه لا يتكيّف أبداً مع الحقائق الخارجية، بل يخشى العالم الخارجي والنزاعات التي تحدث من حوله والتي يحاول الهرب منها باللجوء إلى حياته الداخلية. وتطغي عليه الفكرة التي يرسمها عن العالم أكثر مما يطغي عليه العالم الخارجي. أما موقفه فهو نتيجة تفكير مليء أمام العمل الذي يجب القيام به. ويمتاز المنغلق بالتردد الذي يحول دون تكيّفه. وهو قليل الكلام، اجتماعي نوعاً ما، صعب في علاقاته وفي الصداقات التي يقيمها ولكنه وفّي في عواطفه. وهو يملك حساً نقدياً كبيراً، ويعارض عامة الأفكار المكتسبة ويحسن أكثر من غيره التعمّق بالأحداث لشرحها بشكل أفضل.

أما بالنسبة للمنفتح اجتماعياً فهو يعلّق أهمية كبرى على القيم الموضوعية ويتكيّف مع محيطه كما يجد نفسه في الصداقات والعلاقات الاجتماعية. وهو منفتح على العالم، على الناس، وعلى الأشياء. ويؤثر المحيط الاجتماعي والثقافي والنفسي فيه بشدة كما يوجّه نشاطاته وميوله وحياته المهنية.

والمنفتح اجتماعياً متعلق بالآخرين وثرثار وحيوي ولطيف دائم الاهتياج، دائم الحركة وجريء.

ويحسب يونغ (Jung)، يكبت المنفتح اجتماعياً شخصيته لأن التكيّف مع العالم الخارجي يتحقق عنده على حساب الأنا. في الواقع، يصبح صاحب هذا النمط خاضعاً للضرورات التي يفرضها محيطه كما تضعف حياته الداخلية. ويتأتى عن هذا الوضع أحياناً اضطرابات نفسية خطيرة إحداها الهيستيريا كمبالغة عصابية شائعة عند هذا النمط[١]. وانطلاقاً من دراسة للوظائف النفسية سيميّز يونغ (Jung) بين النمطين الأساسيين، لاقتراح مدرسة أنماط مؤلفة من ثمانية طبائع تتشكل من اجتماع الوظائف النفسية والأنماط ذات الموقف المنغلق ـ المنفتح.

واستخلص يونغ (Jung) أربع وظائف نفسية يعتبرها كفئات نمطية. هذه الوظائف التي تسود واحدة منها عادة عند الشخص هي:

ـ **الفكر**: الذي يسمح للشخص بفهم العالم الخارجي وبالتالي التكيّف معه.

ـ **الشعور**: الذي يسمح بالتمييز بين المثيرات وما يمكن أن يكون مصدر اللذة أو الانزعاج.

---

(١) دعمت أبحاث ايزنيك وإحصاءاته ملاحظات يونغ العيادية. حيث أشارت هذه الاحصاءات إلى وجود محور أساسي للشخصية الإنسانية يتجه من الانغلاق نحو الانفتاح.

ـ **الاحساس**: الذي يلتقط الأشياء كما هي ويضع الشخص في اتصال مباشر مع الواقع.

ـ **الحس**: الذي بدوره يلتقط الأشياء بالإدراك، وبالأحرى بواسطة الإدراك الداخلي وانطلاقاً من رؤية لا واعية للاحتمالات المرتبطة بالأشياء أكثر منه بواسطة الجهاز الحسي.

ويعتبر يونغ (Jung) أن الفكر والشعور هما أول وظيفتين نفسيتين وهما «عقلانيتان» لأنهما ترتكزان على إدراك الشخص وعلى العقل. أما الإحساس والحدس فهما وظيفتان «غير عقلانيتين» لأنهما لا ترتكزان على العقل.

وسيقترح يونغ (Jung) مدرسة الأنماط الآتية، آخذاً بعين الاعتبار الوظائف النفسية كفئات طبائعية.

ـ **نمط الفكر المنفتح**:

يتميّز بتعلقه بالمبادىء المعروفة: كالواجب والحقيقة والعدالة... يحب صاحب هذا النمط أن يتباهى بانتصار أفكاره كما يحب أن يظهر مزاياه. وهو حسّاس وحقود ومتسلط عامة كما أنه مقدّر في وسطه الاجتماعي والمهني.

ـ **نمط الشعور المنفتح**:

يتبع صاحب هذا النمط التعاليم والتربية التي تلقاها. أفعاله متلائمة مع التقاليد كما أنه يهتم بكل ما يتعلق بالصداقة والحب. ويمكن أن يكون متطرفاً في شعوره تجاه الآخرين.

ـ نمط الاحساس المنفتح:

يحب امتلاك الأشياء، يتكيّف بسهولة مع الأوضاع الجديدة، وهو صديق مرح وذوّاقة، يقدّر الأناقة والتصنع في الملابس.

ـ نمط الحدس المنفتح:

يواجه كل الفرص السانحة له. يكره الروتين والثبات ويحب كل ما هو جديد. يضاعف دائماً عدد مشاريعه وأعماله. ويفضّل دائماً الأعمال التجارية والسياسية. إلاّ أنه يفتقد إلى حس المسؤولية تجاه الآخر.

ـ نمط الفكر المنغلق:

يحب تعميق وتوسيع معارفه. يفتش دائماً عن المواقف الصعبة ويفتقر إلى الحس العملي. تحول شكوكه دون تحقيق مشاريعه، كما أنه متردد وفي نزاع مستمر مع الآخرين (زملائه أو منافسيه).

ـ نمط الشعور المنغلق:

يتميّز صاحب هذا النمط بالتحفظ. وهو قليل الكلام ويكره التحدث عن نفسه. يكره المناقشات والضجيج ويقدّر الانسجام والرصانة والهدوء. حساسيته كبيرة ويمكن أن يقتنع بأفكار الآخرين وآرائهم. ولكنه يعرف تماماً كيف يسيطر على انفعالاته وكيف يحافظ على أحاسيسه العميقة والخفية.

ـ نمط الاحساس المنغلق:

يتميّز صاحب هذا النمط بتأثره بجمالية الأشياء عامة: كالعطور والألوان وتوجّهه ميوله عادة إلى الفن. يخاف كل ما هو غريب وخارج عن المألوف ويبقى على حياد حذر مع الآخرين. ويعتقد أن العالم هو نتيجة سلسلة من الحيل حيث يتجلى الرجال الممثلون.

ـ نمط الحدس المنغلق:

يلفت صاحب هذا النمط النظر بغرابته. ويرفض إعادة النظر بالآراء المقتنع بها حتى عندما تكون متعلقة بالطوباويات كما أنه يتشبث كثيراً بأفكاره.

ج ـ مدرسة أنماط سوندي (Szondi):

ليبو سوندي (Lipot Szondi) الذي ذاع صيته بعد الاختبار الإسقاطي الذي وضعه والذي يحمل اسمه[1]. وهو صاحب كتاب امتاز بآرائه النظرية المهمة وبالتطبيق الثابت للعلاج النفسي المتجدد باستمرار. هذا الكتاب كان أساس أحد التغييرات الجذرية في التحليل النفسي منذ أعمال فرويد (Freud). وقد ارتكز سوندي (Szondi) على مفهوم «المأساة

---

(١) يعتبر اختبار سوندي أحد الأربعة اختبارات الأكثر استخداماً في الولايات المتحدة إلى جانب اختبارات رورشاخ واختبار تفهم الموضوع واختبار روزنفايج. أما الكتاب موضوع الحديث فهو «قابيل ـ وجوه الشر» (Caïn les figures du mal).

الإنسانية»[1] لإعداد مفهومه «للخيار». والمأساة بالنسبة لسوندي هي المؤشر الدائم «للقدر» ويتجلى في الحياة الشخصية بالخيار. ولا يحدد الإنسان إلا بملكة الاختيار التي يتمتع بها.

إن أساس أعمال سوندي هو في الوقت نفسه بيولوجي وثقافي. ويُترجم التأثير البيولوجي بالرجوع إلى تكوين الشخص الوراثي في توجيه خياراته. أما بالنسبة للبعد الثقافي فإنه يرتكز على اللاوعي العائلي، مولّد الأنماط البشرية[2]، ويسمح بالانتقال من الإشكالية الوراثية إلى الإشكالية النسبية مع الأخذ بعين الاعتبار تاريخ الإنسان الشخصي المعيش. ويعتمد اختبار سوندي، الذي أطلق عليه اسم «التشخيص الاختباري للاندفاعات» على مفهوم الخيار إذ يُطلب من الشخص اختيار صور من بين مجموعة تبيّن حالات تنطلق من الشذوذ البسيط إلى المرض بحصر المعنى. وعن طريق الاختيار يضع الشخص نفسه في «عائلته النفسية» الخاصة به انطلاقاً من تعاطفه أو اشمئزازه من الصور. ويشتمل هذا الاختبار على ثمانٍ وأربعين صورة موضوعة على بطاقات لرجال ونساء ينتمون إلى الفئات أو الأنماط النفسية التالية:

---

(١) أدخل بوليتزر هذا المصطلح إلى علم النفس في العام ١٩٢٨ لكنه لم يأخذ معناه العميق إلا من خلال سوندي الذي رسخه من خلال فرضيته القائلة بتعايش مشاعر الخير (مشاعر هابيلية) ومشاعر الشر (مشاعر قابيلية) في داخل الإنسان.

(٢) تقدم الأدبيات أمثلة عديدة حول هذا الموضوع.

- الشاذ جنسياً. - التخشبي.
- السادي. - العظامي.
- الصرعي. - الانهياري.
- الهيستيري. - الهوسي.

وعند انتهاء الاختبار، يتم توضيح معالم شخصيته في إطار يظهر عليه خيار الشخص. ويتألف هذا الإطار نتيجة لرسم بياني لكل الإجابات، ومن الإجابات الإيجابية (الصورة المفضّلة) والإجابات السلبية (الصور غير المفضّلة). أما إذا اختار الشخص أربع صور أو أكثر من فئة نفسية معينة، فيعتقد سوندي أن هذا إشارة إلى ميل الشخص للتعرض للاضطرابات الخاصة بهذه الفئة[1].

إن تطبيق هذا الاختبار سهل جداً. أما بالنسبة لفكرة الاختيار التي يعتمد عليها فإنها تساعد على كشف ميول الشخص الذي خضع للاختبار.

ولكن هل بإمكان هذا الخيار المُقترح على الشخص في أوضاع تكون مفروضة عليه (الأنماط المصّورة. . .) أن يدرك جميع الظواهر السلوكية؟

وكتب ألبير رابين (Albert Rabin) حول مسألة قيمة اختبار سوندي (Szondi): «يمكننا القول ان اختبار سوندي هو مسألة تجريبية. فلا يوجد تجارب حاسمة يمكنها أن تثبت

(١) مثال ذلك إن تكرار تفضيل المفحوص لصور شاذين جنسياً هو تكرار يشير إلى وجود ميول شاذة (قد تكون كامنة) لديه.

صحة هذا الاختبار أو تحليل الشخصية أو قدرتها الإسنادية. أما إثبات صحة هذا الاختبار فلا تكون إلاّ في العيادة وعلى لسان الذين اعتمدوا هذه الطريقة...»[1].

د ـ مدرسة أنماط النظرية الجيشتالتية (Gestalt):

تعمد الجيشتالتية[2] إلى تصنيف الشخصيات تبعاً لآليات الدفاع، التي يستعملها الشخص في مواجهة الضغوطات التي تمارس تأثيرها عليه، والتي تهدد توازنه النفسي.

ويرى متبعو هذه النظرية أن هنالك خمس آليات دفاع:

الالتحام، والتهّرب أو الانحراف عن المشكلة، وعكس المشاكل نحو الداخل، والاستدخال والإسقاط. ويميل كل شخص إلى اعتماد إحدى هذه الآليات في سلوكه تجاه العالم الخارجي، تبعاً لعوامل الوراثة وقدراته الشخصية والتربية التي تلقّاها والبيئة التي عاش فيها. فتصبح آلية الدفاع ميزة سلوك الشخص وشخصيته[3].

١ ـ **الالتحام**: الالتحام هو ميل الشخص للهروب من مواجهة الآخرين ومواجهة مشاكله محاولاً التلاقي والاتفّاق مع كل الناس. وباعتماد هذا الموقف ينتهي الأمر بالشخص إلى

---

(١) Rabin. A: Techniques Projectives; ed. Universitaire- Paris, 1965, P.539.

(٢) الجيشتالت هي نظرية علم نفس الشكل ثم جاء غولد شتاين وبونتي ليدخلوا الفيزيولوجيا فيها.

(٣) الثقافة النفسية ـ العدد السادس ـ مرجع سابق الذكر.

عدم تمييز حدوده الخاصة وحدود المحيط الذي يعيش فيه[١].

ويؤدي هذا الشكل من الهروف إلى كبت عدوانية الشخص وقتاليته مما يضفي على شخصيته صفة الضعف والخضوع.

٢ ـ التهرب والانحراف عن المشكلة (La déflexion):
تعرّف هذه الآلية على أنها التهّرب من المشاكل أو من الأشخاص الذين يكون الشخص في نزاع معهم. وبواسطة التهّرب يعمد الشخص إلى توجيه الأحاسيس، التي لا يمكن أن يعبّر عنها أمام الشخص الذي أثارها، نحو شخص ثالث. كما يغيّر المواضيع التي تتعلق بمشاكله. والاعتماد على هذه الآلية الدفاعية بشكل مبالغ فيه، يؤدي إلى قلة الثقة بالنفس وإلى إضفاء صفة الهروبية على الشخصية. هؤلاء الأشخاص يتحوّلون بسهولة إلى مدمنين (تدخين، كحول، مخدرات...).

٣ ـ عكس المشاكل نحو الداخل (La rétroflexion):
وتعني أن يفعل الشخص بنفسه ما يريد أن يفعله بالآخرين. وآلية الدفاع هذه تتلخص في تحويل طاقات الشخص العدائية نحو ذاته. وهذا ما يسميه المحللون بتدمير الذات. وهو عوضاً عن المحاولة لحل مشاكله فإنه يقوم بثورة على ذاته.

والاعتماد على هذه الآلية بشكل مبالغ فيه، يجعل

(١) مثال ذلك الزوجان اللذان يعيشان وفق مبدأ الالتحام هذا.

الشخص عرضة للإصابة بالأمراض النفسية ـ الجسدية (ذبحة قلبية، ربو، سل، حكاك عصبي. . .) بالإضافة إلى كل هذا يصبح الشخص إنساناً ثائراً لا يرضيه شيء.

٤ ـ **الاستدخال (L'introjection)**: هو طريقة التفكير والتقويم وإصدار الأحكام التي أخذها من شخص آخر كأهله مثلاً، والتي أدخلها في سلوكه الداخلي والخارجي بدون أن يكون قد استوعبها. وتشبه هذه الآلية مفهوم الأنا الأعلى في التحليل النفسي. وتمارس هذه العناصر المستدخلة تأثيراً هاماً على سلوك ومواقف الشخص. والاعتماد على هذه الآلية بشكل مبالغ فيه يضفي على الشخصية طابع الاستسلام والسلبية واليأس.

٥ ـ **الإسقاط (La projection)**: يعني الإسقاط أن يقوم الشخص بإسناد رغباته وأفكاره ومواقفه للآخرين[١]. ويعود سبب هذه الرغبات والأفكار والمواقف وإسنادها للغير إلى عدم اتفاقها مع صورة الأنا المثالية.

وأعطت الجيشتالتية المعنى ذاته الذي أعطاه التحليل النفسي لمفهوم الإسقاط. وفي كلتا الحالتين يفترض الإسقاط انتقالا من الداخل إلى الخارج، أي تخطي الحدود التي تفصل بين الأنا والعالم الخارجي. هذا الشخص الذي يلجأ عامة إلى

---

(١) الإسقاط هو أحد أساليب الدفاع عن الأنا وهو آلية تسخر للاستخدام في الاختبارات المعتمدة على الإسقاط.

الإسقاط كآلية دفاع، ينتظر أن يأتيه الآخرون بالحلول لمشاكله ولكنه يصبح عرضة للانهيار ما لم يحصل على المساعدة فيضفي كافة صفاته الحسنة على الآخرين إلى حد أنه يفقد ثقته بنفسه مما يدفع به نحو الانهيار. وقد أثبتت العملية الحسابية أن آليات الدفاع هذه يمكن أن تؤلف ٢٠٦ أنماط سلوكية[1]. ولا بد لنا من الإشارة إلى أن هذه الآليات والأنماط السلوكية التي تنتج عنها هي لا واعية. فهي تترجم ردة فعل الشخص اللاواعية تجاه المحيط الذي يعيش فيه والأحداث التي تهدد توازنه النفسي. ومن المؤكد أن يلجأ الشخص نفسه إلى هذه الآليات المختلفة. أما إذا طغت آلية ما على الآليات الأخرى إلى حد إقصائها فإن شخصية الشخص ستتأثر وستصاب باضطرابات عصابية.

وهكذا يعتقد الجيشتالتيون أن آليات دفاع الأنا، كآليات هروب من الواقع، هي آليات عصابية. أما في حال سيطرة إحدى هذه الآليات على الشخص فإن هذا سيكون مؤشراً لاستعداد الشخصية للإصابة بالعُصاب. ويقابل كل نمط من هذه الآليات ـ كما رأينا في الصفحات السابقة ـ نمط مرضي محدد.

---

(١) إن النمط السلوكي هو عبارة عن مجموعة من التصرفات التي يمكن لشخصيات مختلفة طبائعياً أن تعتمدها. لذا يجب التفريق بين النمط السلوكي المحتوي على مجموعة من التصرفات وبين نمط الشخصية ـ راجع الثقافة النفسية ـ العدد السادس ـ مرجع سابق الذكر.

هـ ـ أنماط الشخصية الطبيعية ـ المرضية. (سمات الطبع المرضية):

إن انماط الطبائع التي سنعرضها[1] في الصفحات اللاحقة ستبرز السمات المرضية لهذه الطبائع. كما أنها ستكون خير توضيح للجدلية «الطبيعية ـ المرضية»: ميزة الواقع البشري.

ولكن استخراج سمة مرضية في الطبع لا يعني أن الشخصية كبنية متكاملة هي مرضية. إذ يمكن أن تحتوي الشخصية الطبيعية على سمات طبيعية ومرضية في آن واحد.

ولا تصبح الشخصية مرضية إلاّ عندما تغلب السمة المرضية على الشخصية وتمنعها من التكيّف مع العالم الخارجي. وفي هذا المعنى تتجلى وتبرز الجدلية «الطبيعية ـ المرضية».

هذه الجدلية نسبية تتعلق في سياقها بالشخصية التي تعيشها. كما أن مفهوم الطبيعية هو نسبي ويتعلق ببنية الشخصية وإمكانيات التكيّف مع المصاعب التي تعترضها والتغييرات التي تهدد توازنها النفسي.

وفي هذا القسم من هذه الدراسة سنعمد إلى استنتاج سمات الطبع المرضية التي يمكن أن تظهر في الشخصية

---

(١) نعتمد هنا التصنيف الذي يقترحه مركز الدراسات النفسية والنفسية ـ الجسدية لاضطرابات الشخصية ـ انظر المرجع السابق.

«الطبيعية». أما في حال سيطرة هذه السمات، فإن هذه الشخصية نفسها تصبح «مرضية». وهذا يعني أن مدرسة الأنماط هذه لا تتعلق فقط بالشخصيات المرضية ولكنها تنطبق أيضاً على الشخصيات الطبيعية.

وسنورد الآن أنماط الطبائع والشخصيات المقترحة.

ـ الطبع العظامي ـ (Paranoide).

ـ الطبع المضطرب مزاجياً ـ (Affectif).

ـ الطبع المنفصم ـ (Schizoïde).

ـ الطبع ذو النمط الفصامي ـ (Schizotype).

ـ الطبع الانفجاري ـ (explosif).

ـ الطبع الوسواسي ـ (obsessif).

ـ الطبع التجنّبي ـ (evitant).

ـ الطبع الهيستري ـ (hysterique).

ـ الطبع النرجسي ـ (narcissique).

ـ الطبع الواهن ـ (asthénique).

ـ الطبع المعادي للمجتمع ـ (anti-social).

ـ الطبع الحدّي ـ (Border line).

ـ الطبع التابع ـ (Dependant).

ـ الطبع السلبي ـ العدائي ـ (Passif-Agressif).

- الطبع المتعدد الاضطرابات - (Polymorphe).

- الطبع المزيج - (Mixte).

- الطبع اللانمطي - (Atypique).

١ - الطبع العظامي - (Paranoide):

يتميّز هذا الطبع بمزيج من جنون العظمة وهذيان الاضطهاد. هذا الشعور بالاضطهاد من جهات مختلفة، يجعل الشخص يحسّ بأهمية كبيرة. في الواقع يثير جنون العظمة الإحساس بأن الشخص مراقب، مشكوك به وفي الوقت نفسه محطّ إعجاب.

وينتج عن المبالغة في تقدير الأنا، كبرياء وغرور يكمن تحت قناع من التواضع المصطنع. ويدعي الشخص أنه يتمتع «بصحة من حديد» ويرفض أن يشفق الآخرون عليه.

كما أنه يُستدرج لاتخاذ مواقف جريئة[١] وإظهار نفسه «بالقاسي» لإثبات «جدارته». كما أن الاستعراضية الفكرية هي موقف يمكن أن يتكرر عند هذا الشخص.

ويمتاز العظامي بعدم ثقته بالآخرين. وعدم الثقة هذا يفسر إحساسه بالملاحقة، والعزلة والنزق الثابت. ويختفي هذا الحذر من الآخرين تحت قناع من الإيثار الكاذب. إن الذاتية

---

(١) يجب التفريق بين هذا الموقف الاستعراضي وبين المواقف المازوشية. فالعظامي يستمد شعوراً بالقوة من خلال نبذه لمشاعر العطف المعروضة عليه. أما المازوشي فإنه يضحي بالقوة لاستجلاب العطف والحب.

والإيثار الكاذب هما نقيضا الطبع العظامي الذي ينتقل تدريجياً عبر مراحل الإثارة والانهيار فيفقد القدرة على التحكم بالمواقف المزاجية وذلك بسبب هذا التناقض. وينتهي به الأمر نسبياً إلى عدم تكيّفه مع المجتمع.

ومع أن العظامي يدعّي دائماً أنه يفكر بطريقة موضوعية إلاّ أنه ذاتي دائماً ونادراً ما يقنع الآخرين. في الواقع يقترف العظامي أخطاء في الأحكام التي يصدرها في تفسيره للأفعال والأقوال: فبدل أن تكون تبريراته عقلانية فإنها ترتبط دائماً بشخصه وبذاتيته. وهذا ما يفسّر النزق: إذ يحكم على أقوال الآخرين ومواقفهم انطلاقاً من شعوره بالاضطهاد، كما يفسرها بحذر شديد. ويصبح العظامي «الضحية» التي هي محور اهتمامات الآخرين الذي يؤثر فيه موقفهم تجاهه. كما يعتقد بأن الآخرين مهتمون به في الوقت الذي لا يعيرونه أي اهتمام...

وهكذا يعمد العظامي إلى اعتماد الآلية الإسقاطية إيثاراً للدفاع عن نفسه كونه قد طلب مساعدة الآخرين وحمايتهم.

وفي الواقع ليس جنون العظمة عنده سوى تعويض لضعفه الخفي الذي يسقطه على الآخرين: فالآخرون ضعفاء ويحسدونه على قوته، ويضطهدونه لأنه أعلى منهم شأناً.

أضف إلى ذلك أن فرويد (Freud) باستنتاجه أن العظامي يحسّ دائماً أنه مهدد من أشخاص من جنسه، قد خلص إلى أن هذيان الاضطهاد يمكن أن يحدده الدفاع في وجه اللواطة.

وأكّد فرويد[1] بعد أن درس حالة الرئيس شربر (Schreber) أن مصدر العظامية في هذه الحالة، إسقاط رغبة لواطية خفية على الآخر. فالكره يحل مكان الحب ثم يُسقط على الآخر (أحبه، أكرهه، يكرهني). ويفسر هذا الإسقاط الموقف العدواني تجاه الآخر: أكرهه. ويعاني رجال السياسة في أغلب الأحيان، من العظامية عندما يحسّون أنهم يملكون حقاً إلهياً وأنهم مهددون بالأعداء. ولكننا نجد سمات مماثلة عند الهامشيين الذين يحسّون أنهم مبعدون، عند غير المفهومين، عند أتباع الطوائف وعند كل سيئي الحظ...

ويتطور الهذيان العظامي والاضطرابات النفسية تدريجياً مما يؤدي إلى عدم تكيّف الشخص الكامل.

ونلاحظ في تصنيف الأنماط الطبائعية الذي ورد في الفصل السابق بحسب مدرسة أنماط رينيه لوسين (René Le Senne)، أن الطبع «العظامي» يميل نحو العظامية. وفي الواقع يمكن أن يؤدي التطوّر التدريجي لبعض سماته إلى المرض، فتميل حينئذ الشخصية بأكملها إلى العظامية تدريجياً. ومن بين هذه السمات: النزق والذاتية وحب الأمجاد والغرور.

٢ ـ الطبع المضطرب مزاجياً ـ (Affectif):

يمتاز هذا الطبع بمواقف لا تتناسب مع الواقع. إذ يرى الواقع من خلال وجدانيته ويحكم عليه بطريقة ذاتية. ويتميّز أصحاب الطبع المضطرب بميلهم إلى الانهيار والسوداوية

---

(١) Freud. S: Psychopathologie de la vie quotidienne; Payot- Paris, 1922.

والتشاؤم أو بميلهم إلى الهياج أو بالميلين معاً. ونلاحظ عند الأشخاص الذين يتجلى هذا الطبع لديهم على شكل انهيار، العوارض التالية:

- مزاج أساسي ميّال نحو الانهيار.
- ميل إلى العزلة.
- ميل إلى التآلف مع الحزن ومع الحوادث الأليمة.
- الاهتمام باللياقات الاجتماعية.

أما بالنسبة للأشخاص الذين يتجلى هذا الطبع لديهم بالهياج فإننا نلاحظ العوارض التالية:

- ميل عميق إلى الهياج.
- السطحية العلائقية.
- نشاط زائد.
- عدم الاهتمام باللياقات الاجتماعية.

أما عند الأشخاص الذين يتراوح مزاجهم بين الانهيار والهياج فإننا نلاحظ العوارض التالية:

- مراوحة مزاجية هامة بين الانهيار والهياج.
- غياب دور العوامل الخارجية والأسباب المبررة لمراوحة المزاج.

وأنماط الطبع الانفعالي/ غير الفعّال في مدرسة أنماط

لوسين (Le Senne) هي الأكثر تعرضاً لاضطرابات المزاج هذه. وتبرز عند النمط «العاطفي» سمات شبيهة بعوارض الطبع ذي الميل الانهياري: كالانعزال عن العالم، والميل إلى الكآبة واجترار الأفكار، والتشاؤم والتعلّق بعاداته. ويشبه النمط «العصبي»، النمط المضطرب بنزويته وسطحيته وأفعاله غير المنظمة وسلوكه الذي يفتقر إلى الثبات. كما أن عدم استقرار المزاج الذي يميّزه والذي يعطيه صفة الأولية يجعله عرضة لاضطرابات الطبع المضطرب ومتراوحاً بين الانهيار والاضطراب.

٣ ـ الطبع المنفصم (Schizoide):

يوجد هذا الطبع على حدود الطبيعية، وتتجلى عند هذا الطبع ميول انفصامية. شخصيته مزدوجة، حياته الداخلية مؤلفة من مزيج من المشاهد الخيالية القوية. ويبدو الشخص للوهلة الأولى بأنه خجول، بارد، ولا مبال تجاه محيطه. وتفسر هذه البرودة ميل الشخص إلى العزلة وعدم قدرته على إقامة علاقات اجتماعية أو المحافظة عليها. كما أن نشاطه منخفض بسبب النقص في الطاقة. وتعوّض هذه اللاانفعالية حياة هوامية قوية تبرر موقفه المنغلق. ويقابل نمط الطبع هذا، الطبع المنفصم، الذي وضعه كرتشمر[١] (Kretschmer)، والذي يشكل عند

(١) كما سبقت الإشارة فقد اعتمد كرتشمر أنماطاً مبنية على أساس الشكل الخارجي للجسم ثم عاد وربط بين كل نمط وبين احتمالات الإصابة بأمراض عقلية معينة.

الإنسان العادي مرحلة تميل نحو الانفصام. وفي نظريته ربط كرتشمر الطبع المنفصم بالنمط المربوع. يمكننا أيضاً ربط الطبع المنفصم بالنمط صاحب الحدس المنغلق الذي تحدث عنه يونغ. وإن ميل صاحب النمط المنفصم إلى العزلة وتعلقه بحياة داخلية هوامية ينمّان كما رأينا عن انغلاقه وتعلقه بالحس كإدراك داخلي وغير منطقي للأشياء.

أخيراً، تظهر لدى الطبع المنفصم سمات مشتركة مع الطبع «الخامل» الوارد في مدرسة أنماط رينيه لوسين (René Le Senne) ويمكن أن يميل الطبع «الخامل» نحو الطبع المنفصم ببرودته وكسله وأنانيته وحبه للعزلة، مع البقاء ـ كالطبع المنفصم ـ في حدود الطبيعية.

٤ ـ الطبع ذو النمط الفصامي ـ (Schizotype) :

اقترحت الجمعية الأميركية D.S.M. III هذا الطبع واعتبرته مقدمة للفصام والأكثر ميلاً نحوه. ويمتاز سلوك صاحب هذا الطبع ببعض الخصائص التي يمكن اعتبارها كعوارض.

ويمكن أن يظهر هذا الطبع على شكلين: مزاج عصبي حيث يطغى الخوف والنزق، ومزاج مجرد من كل إحساس، بارد ولا مبال بكل التحريضات الخارجية. وغالباً ما نرى في هذا الطبع سمات مشتركة مع الطبع «الحدي»[1]. وفي حالات

(١) الشخصية الحدية Border-Line وسيجري شرحها لاحقاً.

الأزمة أو الشدة النفسية يمكن ملاحظة بعض السمات الذهانية العابرة. وللتأكيد على هذا الطبع يجب أن يلاحظ لدى الشخص أربعة على الأقل من العناصر التالية.

ـ نشاط داخلي كبير ونمو في الخيال (حاسة سادسة، تنبؤات أفكار مستترة...).

ـ انطواء على الذات وعجز عن الاتصال مع الآخرين.

ـ أوهام وفقدان الاتصال بالواقع.

ـ اضطرابات على مستوى اللغة.

ـ اضطراب العلاقات الشخصية التي تتأرجح بطريقة غير متوقعة بين الحنان والعدوانية.

ـ هذيان أو أفكار عظامية.

ـ قلق اجتماعي وحساسية بالغة أمام النقد.

وبالرغم من ميله إلى الفصام فإن هذا الطبع ذا النمط الفصامي يمكن أن يبقى في حدود الطبيعية دون أن يتحقق هذا الميل. وإذا افترض الانفصام مرحلة سابقة وهي «الطبع ذو النمط الفصامي» فإن العكس ليس صحيحاً، إذ يمكن أن يبقى الطبع ذو النمط الفصامي ثابتاً ومجرداً من كل المظاهر المرضية خلال حياته بأكملها.

٥ ـ الطبع الانفجاري ـ (Explosif):

يتميّز هذا الطبع بالميل المبالغ لتفريغ الانفعالات بطريقة

تصادمية ومحدثة للضجة. ويمكن أن نتعرف إلى هذا الطبع عن طريق السمات التالية:

- تفريغ غير متوقّع وتصادمي للانفعالات.
- سلوك غير متساو.
- ردود فعل مفاجئة وغير متناسقة.
- ميل المزاج نحو الهمود (انعدام المزاج).

ويطابق الطبع الانفجاري النمط «الغضبي» في مدرسة أنماط لوسين (Le Senne). في الواقع، باستطاعة الطبع الانفجاري أن يقوم بتفريغ تصادمي ومفاجيء للانفعالات بسبب النزق، والعنف. كما أن أوليته التي تجعل من مزاجه مزاجاً متحركاً، يمكن أن تجعله عرضة لانعدام إحساس المزاج وحتى إلى انعدام المزاج بشكل مؤقت.

٦ ـ الطبع الوسواسي ـ (Obsessif):

يتميّز هذا الطبع بتحجّر طريقة التفكير التي تجعل الشخص غير قادر على استيعاب الواقع بجوانبه وشموليته. كما أن القوة السحرية التي يوليها الشخص للفكر والتي تترافق مع مراحل من الشك، تجعله غير قادر على الربط بين المعرفة والفكر من جهة وبين الأحاسيس والمواقف من جهة أخرى. ويحس الشخص صاحب الطبع الوسواسي بشعور النقص الذي يرافقه في تفكيره وحركاته وأفعاله، فيشك بقدراته برجوعه دائماً إلى مثال كامل. ويعرف هذا الشخص بحبه وحاجته إلى النظام

والنظافة والتناسق والدقة. وتفسر هذه الحاجات رغبته في الوصول إلى الكمال الذي يشكّل مظهراً نموذجياً لطبعه.

أما شكّه بمواهبه وقدراته فيجعل منه شخصاً متردداً، إذ يصعب عليه اتخاذ القرارات بشأن أعماله وذلك بسبب شكّه بقدرته على النجاح، وبدرجة كماله.

أضف إلى ذلك، أن تحجّر تفكيره يجعله غير قادر على تحليل انفعالاته وأحاسيسه، مما يزيد من حدة شعوره بالنقص ومن أزمات الضمير إذ هو بحاجة دائماً إلى الاستبطان لإرضاء مثال الأنا الأعلى.

وتؤدي أزمات الضمير والجهود التي يبذلها الشخص صاحب الطبع الوسواسي لتذليل الشك والتردد إلى التعب الجسدي والنفسي: أي إلى الوهن النفسي. هذا الوهن يجعله عرضة للانهيار.

وتعتبر الطبائع ذات الترجيع الثانوي في مدرسة أنماط لوسين (Le Senne)، خير توضيح لنمط الطبع الوسواسي. في الواقع، تتجلى ثانويتهم بحب النظام والنظافة والدقة والميل إلى التنظيم والتعلق بمبادئهم وعاداتهم (صلابة التفكير والأخلاق). وتشبه الطبائع ذات النمط الشغوف والعاطفي والبارد، والخمول إلى حد ما الطبع الوسواسي. وبالرغم من أن الانفعالية تجعلهم ذاتيين أي أقل قدرة على فهم الواقع، فإن استعدادات الشغوفين والعاطفيين محددة أكثر من استعدادات الباردين والخمولين في التطوّر في نفس اتجاه الطبع الوسواسي.

٧ ـ الطبع التجنبي ـ (Evitant):

أدخلت الجمعية الأميركية (D.S.M III) هذا الطبع الذي يشترك مع الطبع الوسواسي بعدد من السمات من بينها عدم ثقته بقدراته الخاصة وعدم القدرة على فهم الوقائع بجوانبها المختلفة.

إن ما يميّز هذا النمط هو لجوؤه إلى التجنّب كآلية دفاع الأنا في كل مرة يعجز فيها عن مواجهة الواقع والتأقلم معه.

أما السمات التي تسمح لنا بوصف هذا النمط فهي التالية:

ـ حساسية بالغة أمام علائم الرفض من قبل الآخرين. فالشخص صاحب هذا الطبع لا يحتمل النقد الذي يمكن أن يوجّهه له الآخرون. فهو في حالة استنفار لدى ظهور أية علامة تنبيء بتراجع تقديرالمجتمع له.

ـ صعوبة إقامة علاقات اجتماعية في حال رفض الآخرين لشروطه الأساسية، إذ يجب أن يقبله الآخرون كما هو بدون أن يقوم بتنازلات تمسّ كيانه.

ـ الرغبة في أن يكون مقبولاً ومحبوباً. ولا يكتفي هذا الشخص بأن يكون مقبولاً كما هو، بل يريد أن يحسّ بأنه محبوب لكي يحسّ بالأمان ويتأقلم مع محيطه الاجتماعي.

ـ ميله إلى العزلة إذ في حال أحسّ هذا الشخص بأنه مرفوض وغير محبوب فإنه لن يتأقلم مع محيطه الاجتماعي وسيلجأ إلى التجنب كآلية دفاع لكي يحمي نفسه من الذي

يسميه: عدوانية الآخرين. فينطوي على ذاته ويبتعد عن المجتمع.

ـ ضعف الثقة بالذات وبقدراته الذاتية. فالشخص صاحب الطبع التجنبي متعلق جداً بآراء الآخرين فيه. فهو بحاجة لأن يشعر بأنه مقبول منهم كي يحسّ بالثقة. كما أن صورة أناه مرتبطة دائماً بالآخرين وليس بحكمه الشخصي. ويعكس نمط الطبع هذا، القلق بشأن فقدان الأشياء. ويحسّ الشخص بصعوبة إثبات نفسه، كما يخشى دائماً أن يفقد حب الآخرين. وهو يشك دائماً بقدراته الخاصة على كسب محبة الآخرين ومواجهتهم. ولكن عدم التقويم هذا لا يرتكز فقط على الكبت بل يعود مردّه إلى العدوانية والثأر من الإحباط الذي عانى منه في الماضي.

وهكذا فإن جعل الآخرين يعانون من الإحباط نفسه أمر مرغوب فيه ومحرّم في الوقت ذاته. وسيؤدي كبت هذه الرغبة إلى تغذية الكف الذي سيتعرض له هذا الشخص.

٨ ـ الطبع الهيستيري ـ (Hysterique):

يميل الشخص صاحب هذا الطبع إلى التعبير عن عواطفه بطريقة مبالغ فيها بالإضافة لميله إلى الحركات التمثيلية المسرحية. ويبدو لنا وكأن هؤلاء الأشخاص يؤدون دوراً مسرحياً فيعمدون إلى إخراج النزاعات التي تؤلمهم بحركة مسرحية. فهم يروون هذه النزاعات وهم يلعبون دور الضحية التي تريد استرعاء الاهتمام والإعجاب والحماية والعطف. أما

مصدر هذا الميل إلى الحركات التمثيلية المسرحية التي تتخطى حدود الواقع، فهو حياة الهيستيري الهوامية الغنية بالتصورات الجنسية. وكذلك الأمر بالنسبة لحياته الحُلُمية.

هذه الحياة الهوامية هي بدورها تعويض عن كبت ممنوعات الأنا الأعلى للاندفاعات الليبيدية.

ويعبّر هذا الكبت عن النزاع بين الهو والأنا الأعلى الذي هو سبب تشكُّل الطبع الهيستيري[1].

وبسبب هذا الكبت، يظهر لدى الشخص صاحب الطبع الهيستيري نقص في النضج العاطفي من جهة وميل إلى تجنيس العلاقات الاجتماعية من جهة أخرى، بالإضافة إلى عدم ثبات عاطفي ينتج عن عدم نضجه. ويعاني هذا الشخص من تقلبات عاطفية يصعب عليه التحكم بها.

أخيراً، يتميّز الشخص صاحب الطبع الهيستيري بزيادة تقدير أهمية ذاته خاصة عندما يحاول استرعاء انتباه الآخرين وإثارة إعجابهم. وتغذي الحياة الهوامية، هذه المبالغة في تقدير أهمية الذات فتدفع هذا الشخص إلى «المسرح»، ويأخذ دور الضحية التي تتركز عليها الأنظار.

٩ ـ الطبع النرجسي ـ (Narcissique) :

النرجسية هي حالة الشخص الذي يثبّت في شخصه كل

---

(١) مع تراجع نوعية المكبوتات التي تقتضي التصريف بالهيستيريا نجد (خصوصاً في البلدان المتقدمة) تراجع الحالات الهيستيرية التقليدية لصالح الإصابة بالاضطرابات السيكوسوماتية.

اهتماماته ورغباته، ويعطي لنفسه صورة مثالية لا يضاهيها شيء. وتطغى النرجسية على مراحل من حياتنا: كالبلوغ والمراهقة. ولكن على الإنسان في ما بعد أن يعرف كيف يتطور نحو اهتمامات الآخر المختلفة، وإلاّ لكان هنالك تثبيت لذاته يؤدي إلى تصرفات تسبب النزاعات مع محيطه. ويعتبر فرويد (Freud) أن النمط النرجسي يتميّز بغلبة الأنا على عناصر النفس الأخرى: الهو والأنا الأعلى. ولا يتعلق النرجسي بالآخر ولا بالممنوعات الخاصة به، فكل ما يطمح إليه هو الاستمرار بالعيش في أفضل الظروف أي إرضاء لغريزة البقاء. ويبدو النرجسي إنساناً مستبداً، عدوانياً ومبدعاً. وبحسب فرويد (Freud)، فإن الأشخاص الذين ينتمون عادة إلى هذا النمط هم عادة من القادة.

ويتميّز النرجسي بالشعور الفائق بأهمية الذات وبالرغبة في استرعاء انتباه الآخرين وإعجابهم. أما شخصيته فهي مزيج من الطموح ورغبة العظمة وشعور بالدونية في الوقت ذاته يجعله أكثر تعلقاً بأجواء الإعجاب والموافقة.

وتغذي رغبة العظمة الانشغال الهوامي بتحقيق النجاح على مختلف المستويات.

إن المبالغة في تقدير الأنا تجعل هذا الشخص حساساً تجاه نقد الآخرين. فتتصف علاقته مع الآخر إذاً بالنزاعية. يُجرح بسهولة أمام نقد الآخرين ويشعر بخيبة الأمل عندما لا يُكافأ. وتعويضاً عن كل هذا يعمد إلى استغلال علاقاته الاجتماعية لأهداف شخصية.

وتتسم علاقته بالآخر بالسطحية، فهو لا يقيم علاقة بشخص ما إلاّ من خلال حبه لذاته الذي يوجه حياته الاجتماعية. الأمر الذي يؤدي إلى النزاعات المحتمة.

ويمكن تشبيه الطبع النرجسي بالطبع «المولع» أو «الغضوب» في مدرسة أنماط لوسين (Le Senne).

في الواقع، وبقدر ما يسقط المولع نفسه في هوى ذاته، فان الأنا تصبح موضوع شغفه. أضف إلى أن نزق وفعالية الغضوب يشبهان نزق وفعالية النرجسي، كما أن أوليته التي تجعل وده متحركاً وسطحياً تجعل منه شخصاً مستقلاً وفي نزاع دائم مع محيطه.

١٠ ـ الطبع الواهن ـ (Asthénique):

يتميّز الشخص صاحب هذا الطبع بوهن نفسي وجسدي في آن معاً. وتفتقر قراراته إلى الحزم كما تضعف إرادته لتصبح شبه معدومة. ويخشى هذا الشخص مشاكل العالم الخارجي كما يجد صعوبة في الاندماج فيه فنراه ينغلق على نفسه ويلجأ إلى حياة خيالية حيث لا تستطيع أحداث ومثيرات هذا العالم أن تمس حساسيته المفرطة.

ويرى بيار جانيه (Pierre Janet) أن عدم ثبات هذا الشخص وحالة الضعف التي يعاني منها هما ذات مصدر «جبليّ». ويرى المحللون النفسيون أن دوافعهما هي نفسية بحتة كالنزاعات المكبوتة والتي لم يوجد لها حل، والاندفاعات

أو الرغبات القوية التي ينكرها الشخص أو التي لم يتوصل إلى تحقيقها.

وتؤدي مقاومة هذا الشخص للميول الخفية إلى انخفاض القوة النفسية أي «الطاقة» النفسية.

ويمتاز الطبع الواهن بالسمات الرئيسية التالية:

- تعب ووهن مزمنان.

- مردود جسدي وفكري غير كاف.

- نقص التوازن المزاجي.

- عدم احترام الجسد: فبسبب ضعف الجسد والنفس، فإن لهذا الشخص شكاوى جسدية ونفسية لا تنتهي. ويقابل هذا الطبع أنماط الطبع غير الفعّال والأولي الواردة في مدرسة أنماط لوسين (Le Senne).

في الواقع، يتعب الأشخاص غير الفعّالين من العمل شأنهم شأن الأشخاص ذوي الطبع الواهن ويخافون من المجهود الذي يجب أن يبذلوه لتحقيق هذا العمل.

أضف إلى أن الأولية التي تتسبب بعدم ثبات المزاج تؤدي إلى إثباط عزيمة الشخص بسرعة وإلى اقترابه من حافة الانهيار. وهكذا تظهر لدى الطبع «العصبي» و«العديم الشكل» استعدادات الوهن بالإضافة إلى كونهما يشتركان مع الطبع الواهن بعدد من السمات.

١١ ـ الطبع المعادي للمجتمع ـ (Anti-social):

يتميّز الشخص صاحب الطبع المعادي للمجتمع بعدم قدرته على التكيّف المستمر مع الأعراف الاجتماعية ـ الأخلاقية للمجتمع الذي يعيش فيه. وهكذا يؤدي سلوكه دائماً إلى صراع مع هذا المجتمع.

وعدم التكيّف هذا يمكن أن يؤدي في الحالات القصوى إلى انعزال الشخص التام، كما هي الحال بالنسبة للمتشردين أو المتجولين، أو إلى تشكيل عصابات إجرامية تتخذ شكل مجموعات تعيش في «غيتو» وتملك قوانين ونظرة خاصة للعالم. ويكون انتساب الشخص إلى هذه العصابات بمثابة تعويض عن عدم تكيّفه وعن عزلته الاجتماعية. ويمكن تقسيم الأشخاص ذوي الطبع المعادي للمجتمع إلى ثلاث فئات:

١ ـ المعادين للمجتمع الذين يعارضون المجتمع فعلياً.

٢ ـ الشاذين جنسياً.

٣ ـ أصحاب النزوات.

وتظهر لدى هذه الفئات السمات المشتركة التالية:

ـ عدم التكيّف المزمن مع العادات والأعراف الاجتماعية السائدة.

ـ العجز عن إقامة علاقات اجتماعية طبيعية.

ـ بدائية العواطف مع اضطرابات غريزية.

١٢ ـ الطبع الحدي ـ (Border Line)[١]:

الطبع الحدي موجود على الحدود بين العصاب والذهان.

ويعتبر الانهيار، الخطر المحدق بالطبع «الحدي».

تظهر لدى هؤلاء الأشخاص حاجة ماسة للعطف.

وهكذا فإنهم يتدبرون أمرهم لكي يبدوا جذابين دائماً.

وتستمر مقاومتهم للانهيار بالنشاط المستمر. ويتميّز هؤلاء الأشخاص بعدم ثبات أعمالهم وأهدافهم وعلاقاتهم الاجتماعية. ويعكس عدم الثبات هذا، مزاجهم المتقلب وشخصيتهم المتغيرة. في الواقع تمتاز شخصية الطبع «الحدي» بعدم الثبات وعدم الحفاظ على السمات نفسها لوقت طويل.

ويمتاز الطبع «الحدي» بالخصائص التالية:

١ ـ علاقات شخصية متغيرة.

٢ ـ عدم ثبات الحالة المزاجية الأساسية.

٣ ـ وجود سوابق سلوك تدميري (إدمان، محاولات انتحار. . . .).

١٣ ـ الطبع التابع ـ (Dépendant):

لا يتحمل الشخص صاحب الطبع التابع مسؤولية أي

---

(١) أدخل هذا المصطلح عام ١٩٣٨ على يد Hugues ثم أعيد استخدامه من قبل Stern وهو مستخدم اليوم للإشارة إلى العديد من الحالات العيادية التي لا تجد لها مكاناً في التصنيفات المستخدمة.

شيء فهو لا يقوم بأي شيء بمبادرة منه. وهو «تابع» للآخرين في أفعاله وقراراته.

أما مصدر هذه التبعية فهو عدم الثقة بالذات.

في الواقع، يعتقد التابع أنه عاجز عن القيام بأي عمل، بالإضافة إلى كونه مقتنعاً تمام الاقتناع بفشل عمله لا بل باستحالته. يقول هذا الشخص عن نفسه بأنه عاجز ومهمل وبأنه غير قادر على متابعة أي عمل. كما أنه يقبل، لا بل يرغب، بوصاية الآخرين إذ هو بحاجة إلى وصي يحميه من التعرض وحيداً للمضايقات.

وهذا الطبع غالباً ما تخالطه مظاهر اضطرابات الطبائع الأخرى كالطبع الهيستيري والنرجسي والتجنبي والمنفصم.

وليست مظاهر القلق والانهيار سوى مظاهر مصاحبة للشخص صاحب الطبع التابع. أما قلقه فمتعلق بالعمل الذي يحس بأنه عاجز عن القيام به، فيشبه بذلك الانفعاليين غير الفعّالين الواردين في مدرسة أنماط لوسين (Le Senne) أي الطبع العصبي والعاطفي.

١٤ ـ الطبع السلبي ـ العدائي ـ (Passif-Agressif):

يواجه هذا الطبع شأنه شأن الطبع السابق، مشاكل على صعيد التأقلم المهني والعلاقات الاجتماعية. ويمكن أن يتعرض هذان الطبعان لمشاكل على صعيد الشخصية بدون أن يؤثر هذا على الحياة النفسية بشموليتها.

ويتميّز الأشخاص ذوو الطبع السلبي ـ العدائي بمقاومة ومعارضة متطلبات الحياة الاجتماعية أو المهنية، الضرورية. وتتجلى هذه المقاومة بالعناد والتردد، إذ غالباً ما يتهربون من إنجاز عمل ما بحجة عدم القدرة أو النسيان... وليس التهرب من العمل سوى برهان على انعدام الفعالية المترسخة في نفوسهم. وانعدام الفعالية هذا قد يطال أدواراً أساسية في حياة هؤلاء الأشخاص (دور الطالب أو دور الزوج)، مما يعيق تقدمهم ونجاحهم.

وما يميّز الشخص ذا الطبع السلبي ـ العدائي هو استمراره في هذا السلوك حتى ولو تأمنت له ظروف تأكيد ذاته وفعاليته. ويمكن تشبيه هذا النمط بجميع أنماط الطبائع غير الفعّالة الواردة في مدرسة تصنيف لوسين (Le Senne) للطبائع كالعاطفي والعصبي، اللاودود واللامتشكل.

١٥ ـ الطبع المتعدد الاضطرابات ـ (Polymorphe):

لقد اقترح (C.Georges) نمطي طبع جديدين وهما الطبع المتعدد الاضطرابات والطبع المزيج وذلك بسبب اصطدام جهود تصنيف الطبائع واضطراباتها، بوقائع عيادية. إذ يمكن أن تظهر لدى الشخصيات علائم تنتمي إلى أنماط طبائع مختلفة. أما الطبع المتعدد الاضطرابات فهو الذي يستعير من أنماط الطبائع الأخرى، سماته واضطراباته المرضية. هكذا يمكن مثلاً إدراجه في الوقت نفسه تحت الطبع المنفصم والمعادي للمجتمع والسلبي ـ العدائي.

١٦ ـ الطبع المزيج ـ (Mixte):

تظهر لدى هذا الطبع سمات واضطرابات تنتمي إلى طبائع أخرى. ولكن بعكس الطبع المتعدد الاضطرابات الذي يمكن أن يشبه هذا الطبع أو ذاك، فإن الطبع المزيجي لا تظهر لديه سمات كافية لتشبيهه بالطبائع الأخرى.

١٧ ـ الطبع اللانمطي ـ (Atypique):

لقد حددت الجمعية الأميركية للطب النفسي (D.S.M. III) هذه الفئة لتصنف في إطارها جميع الطبائع واضطراباتها التي لا تندرج في عداد الأنماط التي تقترحها هذه الجمعية[١].

ويتم التعرف إلى الطبع اللانمطي عن طريق ثلاثة عوارض:

- عجز الشخص عن التكيّف في محيطه الاجتماعي.
- عجزه عن التحكم بميوله وأحاسيسه.
- عدم وعيه واعترافه بوجود هذه الاضطرابات لديه.

---

(١) للتحقق راجع «الثقافة النفسية» (مجلة) ملف الشخصية ـ العدد السادس. حيث تجد تصنيفات اضطرابات الشخصية لدى كل من الجمعية الأميركية للطب النفسي والجمعية العالمية للطب النفسي وأيضاً تصنيف ليونارد وغيره من الباحثين.

الفصل الخامس

دراسة تطبيقية على شخصيات نجيب محفوظ

ـ حالات الطبائع ـ

سنقدم الآن دراسة عن الطبائع التي وصفها الأديب المصري نجيب محفوظ[1] في قصصه ورواياته، وذلك بهدف توضيح الطبائع الواردة في مدارس الأنماط التي ذكرناها في الفصل السابق. وهكذا نستخرج «حالات» الطبائع المأخوذة من الواقع الاجتماعي الذي عاشه الكاتب. صحيح أن شخصيات نجيب محفوظ كما صرّح في إحدى المقابلات[2] هي وليدة ذاكرته وخياله مما يعني كونها الترجمة لشخصيات موجودة بالفعل، وإن لم تكن هذه الترجمة مطابقة تماماً لأنها تحورت بحكم تدخل الخيال، بل هي «. . . عرض موضوعي وتاريخي للمجتمع المصري. . .»[3] كما قال. وتكمن أهمية

(١) حائز جائزة نوبل للآداب العام ١٩٨٧.
(٢) أحمد محمد عطية: مع نجيب محفوظ ـ دار الجيل، بيروت، ١٩٨٣ (ص ١٩٥).
(٣) المرجع السابق.

الشخصيات، التي وصفها نجيب محفوظ، بالنسبة لدراستنا، في توضيح سمات طبائعها وفي وصف مواقفها وسلوكها الاجتماعي. فهذه الشخصيات تم وصفها في ديناميكيتها النفسية ـ الاجتماعية.

كما عمد الكاتب من خلال الشخصيات إلى توضيح ماضيها وتاريخها الشخصي والعائلي. ويسمح لنا هذا من جهة بتحليل الشخصيات التي يقترحها الكاتب، انطلاقاً من مواقفها وسلوكها وعلاقاتها الاجتماعية أي تحليلها أفقياً، ومن جهة أخرى انطلاقاً من تاريخيتها وسوابقها النفسية والعائلية أي تحليلها عمودياً. والهدف من هذا التحليل المزدوج هو تحديد الشخصيات بالنسبة إلى أنماط الشخصيات والطبائع التي عرضناها في الفصل السابق. وبهذا المعنى تصبح شخصيات نجيب محفوظ «حالات» لأنماط الطبع والشخصية.

ونظراً لضخامة نتاج نجيب محفوظ وخصبه فإن دراستنا لن تتمكن من استنتاج جميع أنماط الشخصية التي وصفها الكاتب بل سنكتفي بتحليل طبائع عدد قليل من الشخصيات بهدف توضيح أنماط الشخصيات التي تتناسب معها ـ فقط على سبيل المثال ـ وهكذا نستنتج:

- حالة من الطبع المعادي للمجتمع.
- حالة من الطبع التجنبي.
- حالة من الطبع العظامي.
- حالة من الطبع النرجسي.
- حالة من الطبع الهيستيري.

١ ـ حالة من الطبع المعادي للمجتمع: حامد عمر عزيز في رواية «حديث الصّباح والمساء»[١]:

منذ نعومة أظفاره كان حامد يعيش في نزاع مع محيطه. لقد ولد حامد في عائلة ثرية من أب محافظ ومن أم شديدة التعلق بالخرافات. ولكنه لم يستطع التكيّف مع عقلية عائلته واستبطان مبادئها الأخلاقية، فتعلم من معشر السوء ألفاظ أولاد الشارع. وكان حامد يلجأ دائماً إلى العنف الذي يمارسه مع أخوته الأكبر منه سناً (كان سادس ولد في العائلة) ومع رفاقه في الصف. وكانت المشاجرات التي يخوضها في المدرسة، تعيق تحصيله المدرسي. أما بالنسبة إلى بنات عائلته فكّن يخشينه بسبب سمعته الرديئة. وكانت ضخامة جسمه تمنحه مظهراً رجولياً، فكان يحلم دائماً بأن يكون زعيم عصابة من الشبان تبحث عن ملذات الحياة.

ولوضع حد لعدم تكيّفه مع القواعد الاجتماعية، أدخله أبوه إلى مدرسة الشرطة. ولكن «حامد» لم يستطع الخضوع لنظام المدرسة. فحثّ رفاقه على تنظيم إضراب لصالح ثورة ١٩١٩ مما أدى إلى معاقبته وإعادته إلى السنة الأولى بعد أن كان في سنته الأخيرة. وبعد أن تخرّج تزوج حامد من شكرية وهي فتاة قبيحة، لكنها ثرية. وكان أبوها واسع النفوذ. فعاش وزوجته عند أهلها. وبنفوذه استطاع حموه إيجاد عمل مهم له

(١) نجيب محفوظ: حديث الصباح والمساء، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة. ص ٥٢ ـ ٦٠.

في وزارة الداخلية. وبالرغم من الجهود التي بذلها حامد للتكيّف مع حياته الجديدة، وترف محيط عائلة زوجته الاجتماعي، إلاّ أنه لم يستطع كبت نزواته غير الملتزمة وسرعان ما اشتكت زوجته من ابتذاله واندفاعيته. وكانت نتيجة زواجه، الطلاق الذي أبعده عن ولديه المتعلقين بأمهما واللذين كانا يؤنبانه بسبب معاملته السيئة لها. وبعد أن فشل مجدداً في التكيّف مع المجتمع، تزوج في الخمسين من عمره من أرملة تبلغ الأربعين من العمر، قبلته كما هو واستطاعت أن تتكيّف مع نزواته. وبقي حامد على علاقة طيّبة مع عائلته (أمه وأخوته) ولكنه كان ينتقي رفاقه من أوساط موبوءة مما أدى به إلى تعاطي المخدرات والكحول. وأصيب في ما بعد بسريان الدم مما أدى إلى موته.

إن حالة حامد هي توضيح لنمط الطبع المعادي للمجتمع الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق. في الواقع، يمثل حامد حالة الشخص الذي يعاني من صعوبة تكيّف مزمنة مع التقاليد وقواعد المجتمع الأخلاقية. وهو مندفع ولا يظهر انفعالاته البدائية إلاّ عن طريق العنف. ولم لم يكن باستطاعة حامد أن يقيم علاقات اجتماعية طبيعية لذا لم يشعر بالأمان إلاّ في محيط منحرف ومعاد للمجتمع.

أما بالنسبة لعمله كشرطي فلم يكن سوى تعويض لطبعه المعادي للمجتمع، وكذلك الأمر بالنسبة لحلمه بإنشاء عصابة من الشبان الذين يعيشون بحثاً عن اللذة، والذي لم يكن سوى

محاولة لتعويض عزلته الاجتماعية وعدم تكيّفه مع محيطه وقواعده الأخلاقية. وكان دخوله إلى مدرسة الشرطة بمثابة تعويض عن الإحباط الذي لحق به نتيجة عدم تحقيقه لهذا الحلم.

أضف إلى ذلك أن تعاطيه الكحول والمخدرات يفسر هربه من الواقع الاجتماعي المؤلف من سلسلة من النزاعات والإخفاق. ولكن بالرغم من عدم تكيّفه المزمن ونزاعاته مع المجتمع، فإن «حامد» لا يمثل حالة «المعاداة للمجتمع» المرضية. فهو على حدود الطبيعية بسبب التعويض الذي يسمح له بالقيام بعمله كشرطي. ولو لم يقم حامد بهذا العمل الذي يهدف إلى معاقبة المعادين للمجتمع أي إلى معاقبة نفسه، لكان عجز عن كبح جماح نزواته، وانتمى إلى جماعة معادية للمجتمع كما حلم دائماً منذ شبابه. ولو لم يستطع حامد أن يحقق هذا التعويض لكان تخطى بالتأكيد الإطار الطبائعي الطبيعي إلى الإطار المرضي.

٢ ـ «حالة» من الطبع العظامي. حليم عبد العزيم داوود في رواية حديث الصباح والمساء[١]:

ولد حليم في عائلة ثرية وكان ذا مظهر رياضي وميالاً إلى المزاج والألعاب واللذة. على عكس أخويه الأكبرين المشهورين برصانتهما. وكان راضياً تمام الرضى عن نفسه، ولتبرير تصرفاته التي كان يستاء منها والده كان حليم يقول:

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٢ ـ ٧٦.

«لقد ولدت لكي أجلب التوازن الضروري لعائلتي».

وكان يتميّز بالشعور بالعظمة وبغروره، وازدرائه للآخرين الذين كان ينظر إليهم من عليائه. هذا الازدراء لم يوفّر الأشخاص «الناجحين» من عائلته الذين كان يعاملهم بشراسة. كان كثير النميمة، وكان يهدف من كلامه المجرّح تجريد ضحاياه من مزاياهم لكي يرتفع فوق الجميع. ولم يكن يحطم الجميع إلاّ لمدح نفسه وإثبات سلطته حتى في المجالات الغريبة عنه. وهكذا قال حليم في يوم من الأيام عن صوته الجميل:

«لو لم أكن أنتمي إلى عائلة معروفة بتقاليدها لكنت أصبحت مغني هذا العصر».

وبعد عدد من النزاعات المدرسية، قرر الدخول في مدرسة الشرطة احتقاراً لتقاليد عائلته التي كانت، كما قال والده، عائلة أطباء وقضاة. ولكن «حليم» فرض قراره بحجة أنه لا يملك الصبر الكافي لمتابعة دروسه.

وكان مضطراً في مدرسة الشرطة أن يحترم رؤساءه ويطيعهم الأمر الذي كان يزعجه، خاصة وأنه كان يوجد من بين رؤسائه عناصر كان يعتبرها أقل منه، وهو الذي ينتمي إلى عائلة أرستقراطية. ولم يتوان حليم عن تذكيرهم برفعة محتده عندما كان يلتقيهم خارج المدرسة. وعند ترقّيه إلى رتبة ضابط بفضل نفوذ والده، عُيّن في وزارة الداخلية حيث كان عليه حماية الأميرات والوزراء.

ولم يُعر حليم الاهتمام لاضطرابات ثورة ١٩١٩ إذ لم يكن مهتماً سوى بملذات الحياة. ولم يتزوج أبداً لأنه كان يفضّل الحرية على الارتباط، وعاش في شقة زيّنها بالهبات والأشياء التي قدمها له الوزراء والأميرات.

وتعاظم كرهه للآخرين بعد ثورة ١٩٥٢ لأنه لم يستوعب فكرة استملاك الدولة لثروات العائلات النبيلة. وإلغاء الألقاب (كالباشا)، وكيف كان عليه احترام وطاعة ضباط ممن هم «دونه».

وتفاقمت حدة المشاكل مع عائلته، بسبب سلوكه الذي لم تعهد العائلة مثله. ولكنه فرض نفسه من جديد على عائلته التي اعتبرته مصيبة لا مفرّ منها لا بل مصيبة العائلة الأكثر طرافة. وحدث أن أوقفته الشرطة بينما كان يمضي الليل في أحد الملاهي وأجبرته على الاستقالة من منصبه. وعرضت عليه شخصيات واسعة النفوذ التدخل لصالحه ولكن غروره وخوفه من الإهانة جعلاه يرفض هذه العروض. ومن ثم أحيل إلى المعاش وكرّس حياته لنقد المسؤولين السياسيين ولصبّ جام غضبه وشراسته على الآخرين.

واستسلم للمخدرات وللكحول في ما بعد كوسيلة لتعزية نفسه أثر هذا «الإخفاق». ومن ثم مات بمرض السكري ومضاعفاته. ويمكن إدراج حليم ضمن إطار الطبع العظامي بسبب شعوره بالعظمة وغروره واحتقاره للآخرين. وقد أدت الشراسة التي كان يواجه بها من هم أقوى منه وأكثر نجاحاً، بالإضافة إلى احتقاره لهم بسبب تجاهلهم «لعظمته»، أدت هذه

الشراسة إلى اتسام علاقاته مع أقربائه بالتهديد وإلى حد ما بالعدوانية.

ويكمن وراء النزاع مع الآخرين وخاصة من الجنس نفسه دفاع الأنا ضد اللواطة السلبية، الخفية واللاواعية. مما يؤكد، من وجهة النظر العلائقية، تشخيصنا للطبع العظامي.

إلاّ أنه، وبالرغم من سمات الطبع العظامي التي تظهر لدى حليم، فإنه استطاع ببحثه عن اللذات، التعويض بطريقة ما عن هذاء العظمة الذي لم يتحقق لديه. وهذا ما سيخفف من حدة الشعور بالاضطهاد، ويجنّبه الهذيان العظامي. وفي الواقع، تعبّر حياة الملذات التي كان يعيشها حليم عن نوع من التكيّف مع الواقع الحقيقي الذي يعيشه بدون أن يلجأ إلى الأوهام التي تشكل «الواقعية الجديدة» للهذيان العظامي. ولم يصل حليم، مع البقاء ضمن إطار الطبع العظامي، إلى اللاتعويض المرضي والهذياني، إذ لم يوشك الوقوع في المرضية إلاّ عندما أجبر على ترك منصبه. وبدأ بتعاطي المخدرات. ولكن نجيب محفوظ لم يفدنا بالكثير من المعلومات لبناء استنتاجات عن هذا الموضوع.

ويمكن إدراج حليم ضمن إطار الطبائع «العصبية» الواردة في مدرسة أنماط لوسين (Le Senne) وذلك بسبب ادّعائه وحبه للأمجاد. ويمتاز حليم شأنه شأن النمط «العصبي» بانفعاليته ولا فعاليته وأوليته. كما أن اتّصاف حليم بالاندفاعية والنزق والعنف والذاتية، يعود إلى الانفعالية التي يتميّز بها. وبسبب

هذه السمات يعيش حليم في نزاع دائم مع الآخرين وفي خوف من هذه النزاعات. وتجلّت لا فعاليته خصوصاً في رغبته بمقاطعة دروسه والالتحاق بمدرسة الشرطة بالرغم من أحلامه العظيمة، وتقاليد عائلته التي لم تضم سوى القضاة والأطباء، «والأرستقراطية» التي كان يفخر بها باستمرار. لقد اختار الحل الأسهل والذي يعارض أحلامه.

كذلك، وبسبب أوليته، فإن «حليم» إنسان مدع، يحب الأمجاد، سطحي وفي بحث دائم عن الملذات التي تعزّيه. كما ينفد صبره بسرعة أمام المرض، وهكذا لم يستطع اتباع حمية لمداواة السكري فمات من جراء المضاعفات التي لم يتمكن من تفاديها.

أما لو طبقنا مواصفات القالب السلوكي لمريض السكري، هذا القالب الذي يقترحه البسيكوسوماتيون فإننا نلاحظ أن وصف محفوظ لهذه الشخصية يتضمن كل هذه المواصفات ومنها الانتقادات المكثفة وتكاثر مشاعر الشكوى والنقمة على الأوضاع والتهديد باتخاذ خطوات حاسمة ولكن دون أي تنفيذ.

٣ ـ حالة من الطبع التجنبي: صابر (الهذيان) في رواية «همس الجنون»[١]:

كان صابر شخصاً طيّب القلب وذا طبيعة عاطفية. في

(١) نجيب محفوظ: همس الجنون، دار القلم ـ بيروت، ١٩٧٣ ـ ص ٥٨ ـ ٦٣.

شبابه كان أصدقاؤه يعتبرونه «بيتياً» ملازماً للبيت إذ كان يتجنب اللقاءات الاجتماعية، أو التردد إلى الملاهي والاشتراك في المظاهرات الشعبية. وكان يؤثرُ البقاء في المنزل بسبب أو بدون سبب. سواء لري الحديقة أو للاعتناء بالدجاج والحمام. ولم يكن يخرج إلاّ يوم الخميس لاصطحاب أخته إلى السينما. وما أن حصل على وظيفة مهندس، حتى أخذ يفكر جدياً بالزواج. وبدأ بتوفير المال إلى أن استطاع الزواج بعد سنتين. وكانت ثمرة هذا الزواج ابنة. لكن زوجته أصيبت بمرض عضال وخيّم شبح الموت على حياتهما ليهدد السعادة التي كانا يعيشانها.

وبذل صابر كل ما بوسعه لينقذ حياة زوجته وليؤمن لها العناية اللازمة: فعرضها على أمهر الاختصاصيين، وعلى أطباء الباشاوات والشخصيات الكبيرة. واضطر كي يدفع كل هذه المصاريف، إلى بيع الراديو وساعته الذهبية كما كان مستعداً لبيع آخر نقطة من دمه... كما طلب إجازة عمل للبقاء قرب زوجته والاطمئنان عنها من الأطباء واستشارة العرّافين بحثاً عن بارقة أمل تثلج قلبه.

وكان يمضي الليالي بأكملها يعتني بزوجته التي طال احتضارها. وكان صابر يسمع هذيانها فينفطر قلبه عندما كانت تذكر أماكن وأحداثا عرفاها معاً. وفي ليلة من الليالي قالت له في هذيانها انها مرتبكة وخجلة.

ونظر صابر إليها نظرة عطف معتقداً أنها تحس بكل ما

يخاله من ألم ومتمنياً أن يكون تعبيرها عن هذه الأحاسيس علامة الاستيقاظ والشفاء. وفي نفس اللحظة صاحت المريضة متأوهة «راشد... كفى أتركني، ابتعد عني..». كانت هذه الكلمات بمثابة صدمة حقيقية لصابر الذي جلس على حافة السرير وفي عينيه نظرة سخط وأخذ يفكر في معنى هذه الكلمات. فمن يكون راشد هذا؟. وفجأة سرت في جسمه قشعريرة. لقد تذكّر أن «راشد» كان منافسه في طلب يد زوجته الذي فضّل والدها إعطاءها لصابر.

وفكّر بطريقة تجعل زوجته تتكلم عن المزيد من الأشياء في هذيانها. فحبس أنفاسه وأخذ يسمعها تقول:

«الزنى... أمر سيء...». عندها أحس بثقل في رأسه، وبجفاف في حلقه وبغموض في الرؤية. وفهم أن الهذيان وحده يمكن أن يفهمه الحقيقة التي بدت له أصعب من مرض زوجته. وأحس صابر باليأس يجتاحه والتفت فجأة نحو سرير ابنته وأخذ يتفحص ملامحها، عندها أخذ الشك والألم يحرقان قلبه. فنظر إلى زوجته نظرة باردة وأحس أن قلبه قد تحجّر. وحاول صابر الاستفسار عن راشد وعن الخيانة ولكنه أمام صمت المريضة لم يتوان عن الصراخ، للحصول على الإجابة. وركضت حماته التي كانت تنام في غرفة مجاورة لتسأله ما إذا كان قد أعطاها الدواء للهذيان. فكذّب صابر وأجاب بالإيجاب. في الواقع، لقد أراد إبقاء زوجته في حالة الهذيان التي تعاني منها لكي تتكلم عن المزيد من الأشياء. أما

تحسُن صحتها فهذا أمر لم يعد يكترث له صابر بل كان يمضي الليل بطوله بانتظار أن تتكلم ولكن دون جدوى.

واستفاقت زوجته في اليوم التالي لتسأله عن سبب عدم نومه. فأجابها بجفاء أنه ينتظر التفسيرات بخصوص ما قالته خلال الليل. وبدا صابر قاسياً معها فلم يكن يحس تجاهها سوى بالكره. ولكن الطفلة بكت في هذه اللحظة ودخلت حماته إلى الغرفة لترى ما بها. فخالجه شعور أن الطفلة متآمرة مع أمها لإخفاء الفضيحة. وخرج من البيت مستاء من ضعفه ومن عدم إصراره على معرفة الجواب ومن «طيبة قلبه» قائلاً بأن كل شيء قد انتهى وبأنه قد أخفق في حياته.

وأمضى النهار بأكمله هائماً على وجهه وعندما عاد في المساء إلى البيت أخبرته حماته أن حالة زوجته قد تفاقمت وبأن الطبيب قد قال بأنها شارفت على النهاية. فسرَّ لسماعه بأن حالة زوجته قد ازدادت سوءاً وتمنى أن تتعذب بالقدر الذي تعذب فيه فقرر عدم إعطائها الدواء لكي يحثّها على الكلام ولكي يقول لها بأنه على علم بكل شيء.

ولكن زوجته توفيت في الليل قبل أن تتفوّه بكلمة.

فأحسّ صابر نفسه مقيداً بالخيانة والموت معاً. ولكنه لم يحس بأي ألم لموت زوجته بل كان يردد في نفسه قائلا: «لقد قتلتها بيدي بعدم إعطائها الدواء... لقد قتلتها».

وبتكراره لهذه الكلمات خالجه شعور غريب وهو مزيج

من الخوف والارتياح. ثم قال لنفسه: «لقد قتلتني حياً وألصقت اسمي على ابنة غيري... ولكنني قاتل ولست أحمقاً».

ولم تعد الأيام التي تلت موت زوجته تطاق بسبب شعور الألم والقلب والخوف الذي كان يخالجه. وللهروب من أفكاره ومن ابنته قرر قضاء عطلة في لبنان. فذهب إلى الاسكندرية واستقلّ الباخرة ولكن اليأس بلغ به إلى رمي نفسه في الماء لوضع حد لآلامه.

ويبدو أن «صابر» ينتمي إلى الطبع التجنبي بسبب طبيعته العاطفية وميله إلى العزلة وتجنبه اللّقاءات الاجتماعية. لقد كان صابر ينتظر من الآخرين أن يظهروا له عاطفتهم وحبهم مقابل حبه لهم.

وعندما كان يحس بأنه غير محبوب وبأن الآخرين لم يقبلوه كما هو كان ينطوي على نفسه. كما أنه لم يكن يحتمل النقد من الآخرين. وكان يثور إلى حد فقدان السيطرة على نفسه عند ظهور أية إشارة لرفض الآخرين له. فأن يشعر بأنه مقبول من الآخرين يعني بالنسبة إليه الرغبة في أن يشعر بأنه محبوب لكي يحمي نفسه ولكي يتكيّف مع الحياة الاجتماعية وهذا ما يفسّر إقباله على الزواج ما أن بدأ بالعمل معتقداً أن الزواج سيؤمن له الحب والاستقرار.

وكجميع الأشخاص الذين ينتمون إلى الطبع التجنبي، فإن «صابر» مهيّأ لقلق فقدان الأشياء. هذا القلق قد سيطر عليه

عندما علم بخيانة كان حبه فيها الضحية. وتجاه فقدانه لحب زوجته أحس بألم جرح نرجسي أفرغ ما في قلبه من حب كان يكنّه لزوجته وكان هذا بالنسبة إليه خسارة فادحة. وحلّت القسوة مكان الحنان والكره مكان العطف[1].

وكان الألم النرجسي يقيّده لدرجة أنه لم يعد يهتم لصحة زوجته بل كان يفكر فقط بصورة أناه. لقد أراد أن يضحّي بصحتها بعدم إعطائها الدواء لكي يعرف بالضبط إلى أي حد خدعته وإلى أي حد قد أُهينت أناه. وشعر صابر بأنه ضعيف بعد أن فرغ قلبه من الحب إلى درجة أنه بدأ يشك بنفسه ويكرهها. لقد عيّر نفسه لأنه لم يصرّ على زوجته المريضة والمستيقظة شرح ما قالته خلال هذيانها. هذا الكره الذي كان يحس به تجاه زوجته وتجاه نفسه قد انعكس على ابنته التي تحمل اسمه والتي كانت بمثابة الشاهد الحي على الجرح الذي أصابه.

لقد أثار عصاب الهجر لدى صابر آلية انتقام من الإحباط الذي عانى منه في الماضي.

إن الحب الذي نُزع منه قد أيقظ فيه حتماً مواقف الهجر التي تعرّض لها سابقاً لا بل الخوف من أن يتعرض لها. هذا ما يفسر العدوانية المفاجئة التي أظهرها، والارتياح الذي أحسّ به لدى رؤيته لزوجته تتعذب بالقدر الذي تعذب فيه، أضف إلى

(١) كفاية تظهر كتعويض عن مشاعر الذنب.

ذلك أن الشعور بالخيانة كان أعمق لدى صابر من الألم لموت زوجته. وقد أظهر ارتياحه لقتلها لرفضها وضعية الأبله. ولكن هل يمكن أن يكون الرضى الذي أحس به بارداً إلى هذا الحد وبدون أي انفعال لو لم تكن الرغبة في الانتقام من فقدان حب الآخرين له مترسخة فيه؟

وكان انتحار صابر أمراً محتّماً لأنه أحسّ من جهة، بعد عصاب الهجر، أنه مجرّد من أناه.. أي من مبدأ الواقع ومن ملكة التكيّف، ومن جهة أخرى فقد شعر بأنه فقد الموضوع نهائياً على الصعيدين: الخيانة والموت.

٤ ـ حالة من الطبع النرجسي: دنانير صادق بركات في رواية «حديث الصباح والمساء»[1]:

دنانير هي الابنة الوحيدة لعائلة ثرية أحاطتها برعايتها وقدمت لها فرصة متابعة دروسها في الوقت الذي كانت فيه البنات الأخريات موجّهات نحو الزواج. كانت دنانير معتدلة الجمال ويظهر عندها استعداد للسُمنة. كما كانت نتائجها المدرسية جداً مشرّفة. وكانت فرحة جداً كونها ستحصل على البكالوريا وستكون بذلك «أعلى شأناً» من بنات عمها. وبدأت تفكر منذ تلك اللحظة بزوج يستحقها.

وكانت دنانير تعتبر أنها لا تقلّ جمالاً عن بنات عائلتها وأن أحد أقربائها الكثر سيطلب يدها دون شك.

---

(١) نجيب محفوظ: حديث الصباح والمساء، ص ٨٥ ـ ٩٠.

ولكن ولسوء الحظ توفي أبوها تاركاً وراءه القليل من المال. فشجعها عمها على الزواج ووعدها بأن يتكفّل بنفسه بمصاريف أمها. ولكن غرور دنانير لم يسمح لها بقبول عرضه. فعدلت عن حلم الزواج الذي يراودها منذ سنوات لتعمل كمدرّسة.

وللتعويض عن الأحلام الضائعة عكفت على عملها واستسلمت للشراهة. وكانت تفكر بأسى ببنات عمها اللواتي تزوّجن وبأفراد عائلتها الذين لم يحسّوا برغبتها في الإحساس بالحب. وللتعويض عن العزلة التي تعيش فيها، استسلمت للأوهام التي نقلتها إلى حياة وهمية عوّضت قساوة الحياة التي تعيشها. كانت هذه الحياة الوهمية متناقضة مع الحياة الحقيقية التي تعيشها والمبنية على العمل الجدّي، واحترام الواجبات الدينية والسلوك الحسن.

وحدث أن عرض عليها أحد أقربائها علاقة سرّية بينما كانت لا تزال شابة. هذه الفكرة جرحتها في الصميم. لأنها لا تليق بامرأة شريفة. وأثارت هذه الحادثة لديها شعوراً بالكره تجاه أقربائها الذين تزوّجوا عن مصلحة متجاهلين الشرف، ولم يفكر أحدهم بالزواج منها. وأحسّت دنانير بالسعادة عندما اقترح عليها مدير المدرسة التي تعمل فيها، الاستقالة والزواج منه، ولكنها رفضت لكي تعيل أمها بدون أن تطلب مساعدة أحد أفراد عائلتها الذين تحتقرهم.

وظلت دنانير تقاسي العيش في عالم وهمي، مع أوهامها

العبثية وبدأت تسمُن أكثر فأكثر. ووجدت نفسها وحيدة بعد موت أمها. وأصبحت بالنسبة للآخرين مثال البدانة والكآبة. وكانت ثورة يوليو بالنسبة إليها بمثابة انتقام من الظلم الذي عانت منه. ومع تقدمها في العمر، تركت دنانير أوهامها لتتعزى بالصلاة. وفي عهد سياسة الانفتاح استسلمت دنانير للتشاؤم من جديد عندما كان عليها مواجهة غلاء المعيشة. وأحسّت نفسها من جديد ضحية للظلم.

كجميع الأشخاص الذين ينتمون إلى الطبع النرجسي ثبّتت دنانير كل رغباتها على ذاتها إذ منذ صغرها، كانت تعطي لأناها صورة مثالية لا يضاهيها شيء. لهذا السبب قررت متابعة دروسها لتتقدم على بنات عائلتها ولتتزوج من «أفضل» أقربائها. فكانت تحاول استرعاء انتباه الآخرين وإعجابهم على الصعيد الثقافي.

كذلك كانت تشعر بأنها تضاهي بالجمال أجمل بنات عائلتها إلاّ أنها كانت تريد دائماً التفوّق عليهن ثقافياً إذ كانت الثقافة شبه محرّمة عليهن بينما كانت هي رائدة فيها. الأمر الذي كان يزيد من قيمة الأنا ويجعلها لا تُضاهى.

وكانت طموحاتها وعظمة رغباتها تغذّي باستمرار خيالاتها، التي خلقت لديها وعياً لأهمية الذات وجشعاً لحصد النجاح الأمر الذي دفعها إلى العمل. ولعبت الخيالات في ما بعد، وبعد تراكم خيبات الأمل، دوراً تعويضياً باستبدال هموم الحياة، بحياة متخيلة غنية بالملذات التي حُرمت منها. ويبدو

أن هذه الخيالات لم تخضع لممنوعات الأنا الأعلى. وهذه ميزة يتميّز بها الأشخاص الذين ينتمون إلى النمط النرجسي حيث تسيطر الأنا على عناصر النفس الأخرى كالهو والأنا الأعلى.

وتعتبر الشراهة آلية تعويض أخرى أثارها الإحباط وفجّرها. ففي الواقع، تعبّر الشراهة عن حاجة مكبوتة للحب[1]. وتتجلى هذه الرغبة لدى النرجسيين بقوة بحيث يؤدي كبت هذه الرغبة إلى إحباط أليم جداً. فيفسّر نقد الآخرين على أنه نقص في الحب لا يحتمل. وهذا ما يفسّر نزق دنانير تجاه النقص في حب أبناء عمها لها والجرح النرجسي الذي أصابها بعد أن اقترح عليها أحدهم إقامة علاقة سرية.

ولم يكن سبب إحساسها بالإهانة، هو هذا الاقتراح المنافي لمبادىء الأنا الأعلى بل لأن هذا الطلب قد برهن لها أن ابن عمها لا يحبها كفاية ليتزوجها. لقد أُهينت أناها بنقص الحب هذا. ولم تحتمل كرامتها أن يُنظر إليها كفتاة غير شريفة لا تستحق الحب. وللتعويض عن النقص في الحب، لجأت دنانير إلى تعزية نفسها بالطعام. فأضحى الأكل بديلاً عاطفياً وبالمعنى الحصري للكلمة بديلاً جنسياً.

---

(١) يربط التحليل النفسي بين الشراهة وبين إحباطات المرحلة الفمية حيث تتبدى اللذة بالتعلق في صدر الأم. إن تجارب اللذة الفمية مرتبطة بالغريزة الأبوية المساهمة في الجنسوية عن طريق دورها الأدبي ـ انظر كتاب «السمنة وعلاجها النفسي» د. محمد أحمد النابلسي، منشورات الرسالة ـ الإيمان.

وكانت رفضت دنانير مرتين أن تعهد بأمها إلى أحد أعمامها لكي تتزوج، يدفعها إلى ذلك غرورها النرجسي. وكجميع النرجسيين لا تستطيع دنانير التعلق بالآخرين. فالمبالغة في تقدير أناها تمنعها من تعريض أناها للإهانة. فهي ليست بحاجة للآخرين. . كما أنها ترفض مساعدتهم. ولكن دنانير بحاجة إلى تقدير الآخرين لجهودها. ويفسّر هذا النقص في التقدير كرهها لأبناء عمها والمرارة التي تشعر بها، بالإضافة إلى الغيرة النرجسية من بنات عمها اللواتي لا يستحققْن السعادة التي يعشنها. ويفسّر هذا أيضاً الشعور بالظلم والتشاؤم وكم كانت فرحتها كبيرة عندما علمت أن ثورة ١٩٥٢ تحمل شعار العدالة الاجتماعية التي تنظر إلى الناس انطلاقاً من قيمهم وليس انطلاقاً من ثرواتهم. فأيدت هذه المبادىء التي تثأر للظلم الذي كانت ضحيته. ولكن انتقامها هذا لم يجرّدها من الخوف بشأن المستقبل ولم يخلصها من التشاؤم لأن جروحها كانت بليغة.

فالنرجسيون لا ينسون الإهانة بسهولة، فتبقى آثارها لمدة طويلة.

٥ ـ حالة من الطبع الهيستيري: نجية في رواية «حكايات حارتنا»[١]:

تعيش السيدة نجيّة لوحدها بدون عائلة. وهي سيدة معروفة بغناها. مظهرها الخارجي غريب لا ينسى: قصيرة

(١) نجيب محفوظ: حكايات حارتنا، دار القلم ـ بيروت، ١٩٧٨، ص ٤٤ ـ ٤٦.

جداً، رجلاها مقوّستان، ذقنها إلى الأمام وأنفها بارز. وبالرغم من مظهرها هذا فإنها ليست مُنفرة بسبب روحها المرحة وسُخريتها التي تُضفي المرح على زياراتها لأنها تزرع الضحك بالنكات العددية والأحاجي التي ترويها.

بيتها مليء بالقطط والكلاب التي تتوالد وتتربى فيه محاطة بالعناية والدلال. ونجيّة مغرمة بحيواناتها فهي تكيّف حياتها معها: فتمتنع عن زيارة أصدقائها إذا ما كان أحد حيواناتها مريضاً.

وهي تتكلم دائماً عن «روح» تعيش معها، وتربطها بها علاقة مميّزة. وادعّت أنها كانت تشعر بهذه الروح على وجهها وبأنها وجدت وعاء العسل فارغاً. . .

وكانت تتكلم بلهجة جديّة بعيدة عن المزاح والسخرية عندما كانت تتحدث عن الروح كما كانت تقول أيضاً انها كانت تتكلم مع الهررة والكلاب بلغتها الخاصة التي تفهمها جيداً.

ولتثبيت أقوالها كانت تتكلم بلغة الكلاب والهررة فتثير الضحك. وهي ملّمة في مجال العرافة وتفسير الأحلام حتى ان البعض كان يتّهمها بالشعوذة. ولكنها كانت معروفة بطيبة قلبها.

ومن خلال ميلها إلى الحركات المسرحية عند رواية النكات، وتقليد الحوارات التي كانت تقيمها مع حيواناتها، نستنتج أن نجيّة تملك السمات الأساسية للطبع الهيستيري بالإضافة إلى الانفعالية الممسرحة أو المبالغ فيها.

وبحركة مسرحية أيضاً كانت تروي علاقتها مع «الروح» التي تعاشرها وتأنس بها و«الروح» هذه هي نتيجة هذه الهوامية الخصبة التي يتميّز بها نمط الطبع الهيستيري. وهذه الهوامية تجعل الآخرين يعتقدون بأن الشخص ذا الطبع الهيستيري هو كاذب. ولكن في الأمر أكثر من كذبة، إنه مزج بين الوهم والواقع يعود مردّه إلى الانفعالية التي تبلغ أقصاها.

ويُفسّر هذا الحب للحيوانات بحرارة عاطفة الطبع الهيستيري الذي هو بحاجة لأن يُحب ويُحب.

وبسبب وحدتها، عوّضت نجيّة عن الحب بعشقها لحيواناتها التي تتبادل معها الحب.

ووجدت نزواتها الليبيدية التي تكبتها الأنا الأعلى، تعويضاً لها في الحياة الهوامية من جهة وفي التبادل العاطفي مع الحيوانات من جهة أخرى. ويمثل حبّها للحيوانات الراغبة في السيطرة عليها وامتلاكها كما لو كانت كائنات بشرية، والتضحية من أجلها بالتكيّف معها. ويمثل هذا الحب أيضاً ومن جهة أخرى، إعجابها بتحرر هذه الحيوانات من الكبت والوعي والأخلاق[1]. والتحرر من كبت «الهو» الذي يعاني منه الطبع

(١) هنا نجد خيالات اللاوعي الجماعي كمصدر وهي للمخلوقات التي يكون نصفها آدمياً ونصفها الآخر حيوانياً. حيث الجنسوية محرومة من الجنسوية. لكن ذكاء هذه المخلوقات موجود وأيضاً القدرة على تحقيق اللذة في الوعي. مثل ذلك قدرة الاله زيوس على التحول إلى حيوان للكناية اشتهائه لامرأة. أما في المجتمعات البدائية فإن الحيوان يشخص الأب المكرم والمقدس في آن معاً.

الهيستيري الذي يعيش تحت ضغط «الأنا الأعلى» المستمر.

كما تظهر سمات الطبع الهيستيري في سلوك نجيّة الاجتماعي. فهي تحاول إغراء الآخرين بمزاجها المرح، وبالضحك الذي تثيره نكاتها ولغتها المليئة بالتعابير الجنسية. كما أنها تحاول استرعاء انتباه الآخرين وإغراءهم وكسب إعجابهم بالتنجيم وتفسير الأحلام. كذلك ينّم تبدّل المزاج (الذي يمرّ فجأة من المرح عند رواية النكات إلى الرصانة عند البوح بالعلاقة مع «الروح» الأليف) عن طبع نجيّة الهيستيري وعن عدم نضجها العاطفي.

الخاتمة

لقد وصف نجيب محفوظ الطبائع التي استخلصناها من أعماله انطلاقاً من مراقبته لشخصيات حقيقية موجودة بالفعل.

ولا تهمّنا هذه الشخصيات إلاّ بالقدر الذي تمثل فيه «أنماطاً» من الواقع البشري.

صحيح أن نجيب محفوظ، كما أوردنا سابقاً، قد ارتكز في جزء من وصفه على «ذاكرته»[١] حيث يحفظ الأشخاص الذين عرفهم بالفعل في شبابه وفي حارته.

ولكن الخيال قد لعب دوراً هاماً في إغنائه للذكريات وذلك بربطه للأحداث والطبائع والشخصيات وسلوكها.

ولم يجرّد الخيال، الذي أغنى هذه الطبائع والذي عكس موقف نجيب محفوظ تجاه هذه الشخصيات وتجاه «تشخيصه» للواقع، هذه الطبائع من قيمتها النفسية ولا من الأهمية التي نوليها لها في هذه الدراسة.

(١) يتعلق الأمر بذاكرة المؤلف وبذاكرة الرواة الذين زودوا بمعلومات حول هذه الشخصيات.

ولا يمكننا تصنيف جميع طبائع نجيب محفوظ في الفئات النموذجية الواردة في القسم الثالث والرابع من هذه الدراسة، حتى ولو كنا قد تمكّنا في الفصل السابق من استنتاج بعض الطبائع النموذجية.

ولا تكمن الصعوبة في الطبائع نفسها ولا في تصويرها للواقع البشري، بل في التوفيق بين هذا الواقع وهذه التصنيفات النظرية.

في الواقع، لقد أثبتت التجربة العيادية أن اضطرابات الشخصية ليست موضعة ولا محددة بالدقة المطلوبة في التصنيفات النظرية. فإذا سمحت هذه التصنيفات باستنتاج «أنماط» متميّزة، فإن التجربة العيادية تجد من جهتها، صعوبة كبيرة في احترام هذا التمييز عندما تجد لدى الطبع نفسه اندماجاً حياً للسمات التي تنتمي إلى الأنماط المختلفة فتضطر حينئذ لتحطيم هذا التمييز بين «الأنماط» وتليين صلابة التصنيفات النظرية التي تفصل بين فئات هذه الأنماط، من أجل تسهيل فهمها.

وحدها طبائع «الأنماط الخالصة» يمكنها أن توضح التصنيفات النظرية ولكن وجودها نادر جداً.

ونجد على العكس في التجربة العيادية السائدة التي ترتبط مباشرة بالواقع البشري المعيش، «توفيقات» طبائعية تفرّق بين «الأنماط» وتضاعف عددها. ويؤدي هذا التنوّع إلى تجديد وإغناء الواقع المعيش للتجربة العيادية:

إذ إن كل حالة من الحالات هي بمثابة تجربة جديدة.

وتأتي هذه التجربة أيضاً «لتوسيع نطاق» الأنماط الطبائعية التي تم استنتاجها من التصنيفات النظرية. وهكذا يُقام «الحوار» بين التجربة العيادية والتصنيفات النظرية[1] وبهذا الحوار فقط، يتمكن علم الطبائع من تحليل وتكوين مفهوم الواقع البشري المعيش في تنوّعه وديناميكيّته.

كما أنه من المهم التشديد على أن الحوار بين التجربة العيادية والتصنيفات النظرية يجب أن يأخذ بعين الاعتبار جدلية الطبيعية - المرضية التي تبرُز عند دراسة كل حالة والتي تشكل كما سبق أن ذكرنا، أحد أهم خصائص الواقع البشري النفسي. وستؤدي دراسة هذه الجدلية بدورها إلى تنويع التجربة العيادية وإغنائها. في الواقع، إذا كان سيُحكم على الطبيعية عيادياً، انطلاقاً من درجة التكيّف، فيمكن حينئذ اعتبار بعض الحالات التي صُنّفت نظرياً على أنها مرضيّة، طبيعية انطلاقاً من إمكانية تكيّف الشخص.

وبهذا نتمكن من إدخال مفهوم «السواء» الذي هو ميزة الطبيعية في حياة الفرد الشخصية. ويمثّل إدخال هذا المفهوم تسرّب التجربة العيادية في طبقات الواقع النفسي التي لم تكشفها حتى الآن الأبحاث النظرية. وهنا أيضاً ستعمد التجربة

---

(١) نطبق هنا مبدأ المخطط الذي يطرحه باشلارد في وصفه للحوار بين الفيزياء الجدلية والنظريات الرياضية والتجارب الفيزيائية. انظر:

Bachelard. G: Le Rationalisme Appliqué P.U.F. Paris, 1970.

إلى إغناء النظريات لكي تصبح هذه الأخيرة أكثر موضوعية.

وهكذا تصبح «مفاهيم الأنماط» الخالصة التي استُخلصت من التصنيفات النظرية «مفاهيم عمليّة».

BIBLIOGRAPHIE

ALDER A. Connaissance de l'homme, Payot, Paris, 1955.

ALBY J. Névroses de caractère et caractères névrotiques. «Encéphale», 47.1-16. (1958).

BERGER G. Traité pratique d'analyse du caractère. P.U.F. Paris, 1950.

Caractère et personnalité. P.U.F. Paris 1971.

CANGUILHEM G. Le normal et le pathologique. P.U.F. Paris, 1966.

CATELL R. La personnalité. P.U.F. Paris, 1956.

CORMAN L. Initiation morphopsychologique. Amédée Legrand. Paris, 1941.

DELAY J. Les dérèglements de l'humeur. P.U.F. Paris, 1946.

DUFRENNE M. La personnalité de base. P.U.F. Paris, 1953.

FAIN M. A propos du narcissisme et de sa genèse «Revue Française de Psychologie» N°5-6, 561-572.

FAVEZ-BOUTONIER L'angoisse. P.U.F. Paris, 1945.

FERENCZI S. Transfert et introjection in «Oeuvres Complètes» (1990) t.1. Trad. Fr. J. Dupont. Payot. Paris, 1968.

Formation composite de traits érotiques et de traits de caractère in «Oeuvres Complètes» (1906) t.2. Trad. Fr. J. Dupont. Payot. Paris 1970.

FREUD A. Le Moi, et les mécanismes de défenses. P.U.F. Paris, 1952.

Le normal et le pathologique chez l'enfant. Gallimard. Paris, 1968.

FREUD S. Etudes sur l'hystérie. P.U.F. Paris, 1955.

Psychopathologie de la vie quotidienne. Payot. Paris, 1922.

Trois essais sur la théorie de la sexualité infantile. Gallimard. Paris, 1949.

Cinq Psychanalyses. P.U.F. Paris, 1954.

Essais de psychanalyse appliquée. Gallimard. Paris, 1952.

GLOVERE E. Le caractère et le conscient, in Freud ou Jung P.U.F. Paris, 1950.

GOLDSTEIN K. La structure de l'organisme.. Gallimard. Paris, 1951.

JANET P. Evolution psychologique de la personnalité. Alcan. Paris, 1929.

JASPERS K. Psychopathologie générale. Alcan. Paris, 1933.

JONES E. Traité pratique et théorique de psychanalyse. Trad. Fr. Payot. Paris, 1925.

JUNG. C.G. Le Moi et l'inconscient. Gallimard. Paris, 1938.

Types psychologiques. Trad. Fr. Le Lay, Georg, Genève, 504. 1958.

KERNBERG O.A. psychoanalytic classification of character pathology, J.Amer. Psychoanal. assoc., vol.18, n°4, 800-822. 1970.

KRETSCHMER E. Structure du corps et caractère. Payot. Paris, 1948.

LACAN J. Ecrits. Le Seuil. Paris, 1966.

LE SENNE R. Traité de caractérologie. P.U.F. Paris, 1945.

MARTY. P. Les rêves chez les malades somatiques.

MARTY P., M'UZAN M. (de) et **David CHR.** L'investigation psychosomatique. P.U.F. Paris, 1963.

MINKOWSKI E. A la recherche de la norme en psychopathologie, Evolution psychiatrique n°1. Paris, 1938.

NACHT S. et **SAUGUET H.** La théorie psychanalytique de la formation du caractère, la théorie psychanalytique, P.U.F. Paris, 1969.

PALMADE G. La caractérologie. P.U.F. Paris, 1958.

PAVLOV I. Typologie et pathologie de l'activité nerveuse supérieure. P.U.F. Paris, 1955.

PENDE N. Traité de biotypologie Humaine. Vallardi. Milan, 1939.

PLAGET J. La psychologie de l'intelligence. Colin. Paris, 1949.

PIERON H. La psychologie différentielle. P.U.F. Paris, 1949.

RANGELL L. The borderline base, J.Amer. Psychanal. Assoc., 4 n°1-4. 1956.

REICH W. L'analyse caractérielle. Trad. Fr. Payot. Paris, 1971.

SHELDON W.H. et **S.S.** Stevens les variétés du tempérament. P.U.F. Paris, 1951.

SIGAUD C. La forme humaine, sa signification. Maloine. Paris, 1914.

STERN A. Thérapeutique psychanalytique dans les états limites. Psychoanal. Quart., 14 n°2, 190-198.

SZONDI L. Diagnostic expérimental des pulsions. Trad. Fr. P.U.F. Paris, 1952.

VIOLA G. La constitutione individuale. Rizzoli, Bologne, 1932.

الفهرس

قراءات متعددة للشخصية

تكشف الدكتورة شاهين في هذا الكتاب وجوهاً متعددة للحقيقة الإنسانية . فهي تبدأ بعلم الطبائع الشعبي مبينة تناقضاته وارتباطه بالأمثال الشعبية ، لتنتقل بعد ذلك إلى التصنيفات الطبائعية لمختلف المدارس والتيارات النفسية وخصوصاً تصنيفات الطبيب النفسي ولهلم رايخ ، ثم تنهي كتابها بدراسة طبائعية ـ تطبيقية على شخصيات الكاتب الكبير نجيب محفوظ .

الناشر